فاضل العزاوي

مدينة من رماد

رواية

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب: مدينة من رماد / رواية
تأليف: فاضل العزاوي
الناشر: دار بابل
الطبعة الاولى ٢٠٠٠/ ١ / ١٩٨٩
تصميم الغلاف: يحيى الشيخ

مدينة من رماد

فاضل العزاوي

- ١ -

كثيراً ما كان قاسم حسين، وهو معاون أمن في مديرية الأمن العامة في بغداد، يقصد مساءاً إحدى الحانات الصيفية الواقعة على الرصيف الأيسر من شارع أبو نواس الذي يمتد بمحاذاة نهر دجلة ويتلوى معه مثل أفعى لا نهاية لها، إبتداءاً من جسر الجمهورية الذي يربط ما بين الرصافة والكرخ عند ساحة التحرير وحتى البيوت العتيقة الواقعة في كرادة مريم، وبخاصة في فصل الصيف الذي يطول أكثر من خمسة أشهر، ابتداءاً من أواخر نيسان وحتى نهاية أيلول، حيث تبلغ الحرارة في بعض الأشهر وبالذات في شهري تموز وآب الخمسين درجة مئوية، وهو أمر لا تعلنه أبداً نشرات الطقس الرسمية التي تصدرها الحكومة، اذ أن الرقم في نظرها ينبغي ألّا يتجاوز الخمس والأربعين درجة، حتى لا يرتعب الأجانب الذين يقصدون بغداد، ولكن هذا لم يكن ليهم العراقيين الذين اعتادوا على مثل هذا الطقس، ولعل هذا يفسر حقيقة أن سكان بغداد لا يتحدثون أبداً عن الطقس، على عكس الشعوب الأخرى، ولماذا تراهم يفعلون ذلك، اذا كان المرء يعرف مسبقاً أن الطقس غداً سيكون مثلما كان عليه اليوم وسيظل كذلك بعد شهر أيضاً؟ ولم يكن قاسم بعادته هذه ليشكل استثناءاً داخل هذه المدينة المتلألئة بضوء ساطع، يبهر الأنظار، ففي المساء، كل مساء، إبتداءاً من الساعة السادسة مساءاً، يترك مئات الألوف من الناس بيوتهم الوخمة ويخرجون إلى الشوارع، تملأ أنوفهم رائحة المساء العذب الذي كثيراً ما يختلط برائحة القداح التي تفوح في الجو؛ ألوف مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال يملأون أرصفة شارعي الرشيد والسعدون، سائرين باتجاهين متعاكسين وموحين في الوقت ذاته كما لو أنهم لا يقصدون هدفاً محدداً بالذات. وكان من الصعب حقاً تصور أن هؤلاء يريدون شيئاً معيناً بالذات. لا شك أن بعضهم كان قد خرج للتسوق من المتاجر الصغيرة الممتدة على طول أرصفة الشوارع وكان بعضهم يفكر في الذهاب إلى سينما ما؛ الخيام، غرناطة، النصر، أطلس أو بابل، حيث تعرض أحياناً بعض الأفلام الجادة إلى جانب الأفلام

البوليسية والكاوبوي الأميركية. ولكن كل ذلك لم يكن سوى أمر ثانوي، يعتمد على الصدفة في أغلب الأحيان، إذ أن الهدف الأهم، وهو هدف كل مساء، يظل بالنسبة لمعظم المتنزهين الأنتهاء إلى حاناتهم التي اعتادوا على ارتيادها كل يوم، مع شلة من الأصدقاء، لا تتغير الا نادراً. كان بعضهم يقصد حانته المعتادة مباشرة، ولكن الأغلبية كانت تفضل أن يسبق ذلك الجلوس في المقهى، حيث يمكن إحتساء إستكان من الشاي ولعب الدومينو أو الطاولي مرة أو مرتين، قبل التسلل إلى الوكر الليلي الأخير. وما عدا الهدف النهائي وهو الحانة (كان معظم أصحاب الحانات الشعبية في بغداد يقومون بتثبيت صحونهم بالمسامير فوق الموائد، خشية سرقتها من قبل الزبائن السكارى في آخر الليل) فانه ما من شيء كان مؤكداً في حركة هؤلاء، فقد كانت النزهة المسائية تعتمد قبل كل شيء على الصدفة أو على ما يجلبه القدر، ولم يكن ذلك مما لا يؤبه له بأي حال من الأحوال، فقد يلتقي المرء صديقاً ما، وهو أمر يكاد يكون عادياً، أو يتعرف على أحد ما، وربما اجتذبه أمر ما، فتبعه حتى النهاية، كل شيء ينبغي أن يعتمد على الصدفة والا فقدت النزهة معناها. والحق يقال أنه ما من أحد يفكر في الأمر بهذه الطريقة الملتوية. كل ما في الأمر هو أن المرء يرتدي بنطلونه وقميصه، ذا الأكمام القصيرة ويضع رجليه في حذائه الصيفي المفتوح ويخرج إلى الشارع، تلهب وجهه الحرارة التي مازال الأسفلت يعكسها في الجو، وهي حرارة تكون وخمة جداً اذا كانت سيارات البلدية قد مرت بالشارع ورشته بالمياه، من أجل تلطيف الجو بعض الشيء.

وكان المعاون قاسم حسين يفعل ذلك هو الآخر كل يوم، اذا لم يكن ثمة ما يشغله في دائرته أو يتطلب وجوده هناك. كان يستمتع أحياناً بقيلولة الظهيرة في مشتمله الصغير الواقع في الوزيرية، ثم يخرج ويستقل الباص رقم ٦، حتى منطقة عقد النصارى في شارع الرشيد، ويسير بعد ذلك مشياً على قدميه. ولكنه كان يفضل في أغلب الأحيان السير من الوزيرية وحتى منطقة الميدان على قدميه (وهي المنطقة التي كانت عامرة ذات يوم ببيوت الدعارة والتي تضم خرائب، تصدر منها صحف العاصمة، ووزارة الدفاع التي كانت تعزف كل صباح ومساء النشيد الوطني أثناء رفع العلم أو إنزاله وفي خلال ذلك ينقطع المرور ويتوقف المارة في الشارع احتراماً، وعلى ضفة النهر وقريباً من سراي الحكومة كان يقع البلاط الملكي القديم وقصور الباشوات العثمانيين التي كانت قد تحولت الآن إلى مقرات مطابع ومخازن

ورق)، وكـان يمـر في طريقـه بالجسـر الصغير الذي يعبره قطار خلف السدة، وبكليتي التـربية والتجارة المزدحمتين بالفتيات الجميلات ومن ثم بمحطة قطار كركوك التي غالباً ما كانت تبدو مهجورة، بسبب من أن القطار كان يصل مرة واحدة في اليوم، في الصباح الباكر، ويظل باركاً في مكانه حتى المساء قبل أن تدب فيه الحياة مرة أخرى، منتهياً إلى السوق الشعبي المواجه لبناية دار الطلبة الجميلة، حيث يتكدس باعة الأرصفة والريفيون والكلاب والقطط. وفي منطقة الميدان كان يركب البـاص رقم ٤ حتى ساحة الأندلس، حيث يتوسط محل الورود الزجاجي الساحة الدائرية، ولكنه كان يظل جالساً في الباص حتى القصر الأبيض المواجه لمديرية الأمن العامة، اذا ما شعر بالتعب أو كان على عجالة، وهو أمر لم يكن يحدث الا نادراً.

أما عندما كان يبقى في الدائرة فانه كان يقطع شارع النضال، متسللاً إلى الشوارع الجانبية الهادئة التي سرعان ما كانت تؤدي به إلى شارع السعدون، من خلف سينمـا النصـر ومن أمام ملهى الصفا الذي كان قد قصده مرتين أو ثلاث مرات. ومن هنـاك يعبـر شارع السعدون إلى الرصيف الآخر الذي تؤدي فروعه القصيرة إلى شارع أبو نواس، حيث كان يسير مسترخياً، متفرجاً على النساء اللواتي يخرجن للنزهة مع أزواجهن. وكان يتوقف عادة وهو في الطريق إلى بار سرجون الصيفي عند بائع شاي على الرصيف ليحتسي إستكاناً من الشاي المحلى بالسكر بطريقة مفرطة. ولم يكن ليهمه كثيراً أن يعثر على رفقة في البار، هذا إذا لم يكن ذلك يزعجه بعض الشيء، فقد كان يفضل في الحقيقة أن ينفرد بنفسه مع العرق الذي كان يحتسيه بدون إفراط.

ولم يكن ليستقـل سيارة الفـولكس فاكن التـابعـة للدائـرة والتي يحق له استخدامها الا عندما يتعلق الأمر بالعمل وكان يندر أن يأخذها معه إلى بيته، على عكس الكثير من زملائه الذين كانوا يعتبرون ذلك أمراً طبيعياً، أما هو فكان يرى في ذلك امتيازاً، لا ضرورة له، وربما اعتقد أن إبقاء السيارة معه بصورة مستمرة يفقده متعه اليومية الصغيرة التي يجدها أثناء نزهاته داخل المدينة.

كان المعاون قاسم حسين قد أمضى هذه الليلة أيضاً وحيداً أمام كأسه مثلما يفعل ذلك دائماً. ولم يكن ليشغله أي أمر سوى بعض الذكريات التي كانت تعبر رأسه، بدون أن يركز عليها. كانت تمر مثل أشرطة عديدة في الوقت ذاته. وكان

ذلـك يرهقـه بعض الشيء، الا أنـه كان يشعر بحيوية استثنائية في كل جزء من جسده، ربما بسبب البرودة اللذيذة في حديقة البار.

وأخيراً عنـدمـا نهض قاسم في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، مغادراً الحـديقة الصيفية المكتظة بالثيل لبار سرجون شعر أنه أخف مما ينبغي. كانت رجـلاه تضربان في الهواء فيما ارتفع رأسه، محدقاً في الأضوية التي كانت تنير أعالي البنايات. وعندما أصبح في الشارع مرة أخرى إنتبه إلى أن النادل كان قد سرق منه ستين فلساً عندما دفع له الحساب. وقال في نفسه «هذا يعني أنه قد ربح مني وحدي مئة وعشرة فلوس، فقد دسست في يده درهماً قبل أن أخرج. واذا ما فعل ذلك مع عشرين شخصاً كل يوم فان راتبه سوف يزيد على راتب مدير عام، أما اذا فعل ذلك مع ثلاثين شخصاً فقد يتخطى راتب الوزير نفسه.» وضحك من نفسه على هذا الكشف الذي فاجأه «ليسرق، ليسرق، كلهم يسرقون، من المدير العام وحتى الوزير!»

كان النسيم العذب الذي يضرب وجهه يوقظه قليلاً، قليلاً، ومر بالدكاكين الصغيرة التي تبيع التكـة والشـاي، والمتناثرة في كل الأزقة الموصلة بين شارع السعدون وأبو نواس. ورأى مخبرين عديدين كان يعرفهم، يجلسون على التخوت المفروشة بالحصران، ويحدقون في السكارى المتحلقين حول باعة التكة الذين لم يكونوا يكفون عن إصدار أوامرهم إلى عمالهم الصغار، متخللة إياها نكتة بذيئة يتبادلونها مع زبائن، يزعقون في بعضهم. وكان ثمة مخبر شاب قد نهض وركب دراجتـه الهـوائية مبتعداً. «إنهم يتظاهرون بعدم رؤيتي، محاولين ايهامي بأنهم يعملون في حين يظلون يجلسون على هذه التخوت العتيقة، بانتظار إصطياد سكير قد يشتم الحكومة للترويح عن نفسه. أهؤلاء هم من يعتبرهم مديرنا جزءاً من أسرة، أنتمي اليها أنا الآخر؟»

توقف لحظة وراح يحدق من وراء رؤوس الزبائن في بائع التكة الذي كان منهمكاً في تشييش قطع اللحم الصغيرة، ثم نادى عليه:

- «جبار، يبدو أنك مشغول اليوم!»

ولكن جبار الذي بوغت بحضور المعاون قاسم حسين ألقى ما في يديه من سفافيد وراح يتملقه بطريقة أثارت غيظ الزبائن:

- «أهلاً سيدي، تفضل سيدي، هات كرسياً ياولد، مرحباً، ياللمفاجأة!»

كان الزبائن يحدقون في قاسم حسين، هذا الرجل الذي قد يكون ذا شأن مادام جبار يرحب به بمثل هذه الحرارة. ومع ذلك قال أحد الواقفين، معنفاً:

ـ «ما هذا يا جبار؟ إنك تبالغ كثيراً مع صديقك!»

تغافل جبار عن زبونه السكران، ملقياً المزيد من التحايا فيما قال المعاون قاسم حسين بهدوء:

ـ «لست مستعجلاً، مشّي الجماعة أولاً!»

وألقى بنفسه على أحد التخوت التي كانت تحتل قسماً من الرصيف بمحاذاة الجدار فيما أقبل عليه جبار وقدم له سيجارة روثمان، راح يدخنها بانتشاء:

ـ «لابد أنك جوعان. هل أعد لك شيئاً من التكة؟»

ـ: «كلا، أطلب لي شاياً فقط. أما التكة فارسلها لي مع واحد من الجماعة إلى الدائرة. عندي خفارة هذه الليلة.»

ـ: «إنك غارق في العمل دائماً!»

ضحك المعاون قاسم حسين:

ـ «هكذا هي الدنيا. لابد من العمل حتى نعيش.»

كان المعاون يتأمل المارة؛ مرقت سيارة مسرعة، يغني في داخلها ثلاثة أو أربعة شبان سكارى أغنية بغدادية قديمة: «فوك النخل فوك فوك يابه، فوك النخل... فوك» وتوقفت سيارة فولكس فاكن، هبط منها أربعة شبان، طلبوا شاياً. ورأى المعاون قاسم حسين أحد أفراد الأسرة يتجه نحوه ويحييه:

ـ «سيارتنا هنا... سيدي، هل ترغب أن نوصلك؟»

أجاب قاسم بمودة:

ـ «سأذهب ماشياً، أريد أن أتنسم بعض الهواء النقي. إجلبوا لي طعامي فقط.»

وابتعد مسلماً نفسه لليل الطويل الذي ينتظره.

- ٢ -

دخل المعاون قاسم حسين قاعة القيود السرية وتناول ثلاث إضبارات قديمة، يكسوها الغبار ووضعها على الطاولة التي كان يجلس وراءها موظف عجوز، بدا منهمكاً في تسجيل مجموعة من الأسماء الجديدة التي وردت اليه. وفكر المعاون قاسم حسين «ها هو العجوز يعمل»، ورفع العجوز رأسه وقال بشيء من الأنزعاج:

- «أرجو إعادتها بعد الأنتهاء منها!»

وابتسم المعاون «إنه يعيد الكلمات ذاتها، الكلمات التي لا يمل من تكرارها» وقال:

- «إطمئن، سوف أعيدها بالتأكيد!»

وكرر العجوز:

- «دائماً تأخذون الأضابير ولا تعيدونها. في كل مرة، أضطر إلى البحث عنها بنفسي بين الغرف.»

وفكر المعاون مع نفسه «ما الذي يقلق هذا العجوز؟ أتراه يخشى أن يفلت منه بعض الذين يحتفظ بمصائرهم بين أوراقه؟» وغادر القاعة دون أن يقول شيئاً.

وفي طريقه مر بغرفة المعاون يوسف الذي كان يحتسي الشاي مع معاون آخر من العاملين معه. لم يكن قاسم حسين يكن مودة خاصة للمعاون يوسف «هذا المتقلب الذي ينتظر الفرص للصعود. إنهم جميعاً مدربون لأفتراس أقرب الناس إليهم!» وكان يعرف أنهم يكرهونه هو أيضاً. وألح المعاون يوسف:

- «هيا اجلس أيها الرجل. لماذا تبتعد عن أصدقائك؟»

وارتبك المعاون قاسم حسين:

- «إنني موجود في مكتبي دائماً.»

-: «ولكنك تسكر وحدك!»

قال قاسم متهرباً، وهو يضع الأضابير أمام المعاون يوسف:

ـ «أرجو أن تدرس هذه القضية. سوف أرسل لك التقارير الأخرى الموجودة عندي.»

وسأل المعاون يوسف:

ـ «أي قضية؟»

أجاب قاسم:

ـ **«قضية الخط المائل داخل الدائرة.»**

وتدخل المعاون الآخر:

ـ «إنها مهزلة. من كان يصدق وصول الوباء الينا أيضاً!»

وفكر قاسم مع نفسه «أنتم أشد فتكاً من أي وباء آخر»، إلا أنه ابتسم:

ـ «ينبغي أن نكون أكثر حذراً في المستقبل.»

واعترض المعاون يوسف:

ـ «ما الذي تريدني أن أقوله؟ إننا جميعاً نعرفهم جيداً وقد اعترفوا بكل ما لديهم من معلومات.»

ـ: «هذا صحيح، ولكنهم كانوا يعملون معك في نفس الشعبة. ما الذي تقترحه بشأنهم؟»

رد المعاون يوسف:

ـ «لو كان الأمر بيدي لرميتهم بالنار. إنني أكره الخونة.»

ـ: «سوف يقدمون إلى المحكمة العسكرية على أي حال.»

إبتسم المعاون يوسف:

ـ «سوف يكون التقرير جاهزاً بعد ساعة.»

وغادر المعاون قاسم حسين الغرفة. كان يتوجب عليه أن يصعد السلم ويطلب بعض الصور المتأخرة عند قسم التصوير ولكنه فكر أن يتصل أولاً بأحد وكلائه، ليسأله عن سبب تأخره في تقديم تقريره الأسبوعي «إنهم يقبضون رواتب لقاء لا شي. يذهبون لينامو مع نسائهم، تاركين الشوارع للفوضى» وعبر الممر المعتم. كان ثمة شرطي، ينام على سرير في الزاوية «إنهم لا يكفون عن النوم» ووضع قاسم أصابعه بين أضلاعه:

ـ «هيا انهض!»

وتثاءب الشرطي ثم فتح عينيه وغادر السرير:

ـ «عفواً سيدي! كنت تعباناً فغفوت.»

واستشاط قاسم غضباً:

ـ «هل تعتقد أنك في فندق؟»

ـ: «عفواً سيدي!»

وتركه المعاون قاسم حسين، متجهاً إلى غرفته التي لم يكد يستقر فيها بضع دقائق حتى غادرها مرة أخرى ليزور الموقف، حيث كان أحد المرضى قد أعلن الأضراب عن الطعام لعدم نقله إلى المستشفى. كان المعاون قاسم يفكر «ربما يريد الأتصال برفاقه في الخارج». لم يكن يثق بالشرطة، وكان يعرف أنهم سيغلقون عيونهم لقاء علبة سيجاير أو وجبة طعام. «هل أذهب معه؟ لا، لا يمكن ذلك». وقال مخاطباً نفسه بصوت يكاد يكون مسموعاً «ربما كنت حريصاً أكثر مما ينبغي»، ثم قرر:

ـ «إفتحوا الباب وخذوه إلى المستشفى. لا نريد أن نتحمل مسؤولية موته.»

وعاد إلى غرفته، ليغرق نفسه في العمل..

- ٣ -

الجـو مغبـر والشمس تسطع بشدة. الساعة هي الثامنة. في العاشرة يبدأ الأجتماع الأسبوعي الذي سيحضره المدير العام كالعادة، مثلما يفعل كل أسبوع. إجتاز المعاون قاسم حسين شارع الوزيرية، منتهياً مرة أخرى إلى باب المعظم، مثل كل المرات السابقة التي لم يعد يذكر منها سوى أنه كان يتنزه، منحدراً باتجاه ضجة الباعة المتجولين وسواق سيارات الأجرة، وألقى بنفسه على مقعد خشبي عند أحد باعة التكة في مقدمة السوق الضيقة التي كان القرويون يقصدونها من الأرياف المحيطة ببغداد، حيث تبيع الدكاكين التبغ المصفى والسكر والشاي، والأقمشة ذات الألوان الزاهية، أكثر من أي شيء آخر. وكان هو يجد متعة في النظر إلى هؤلاء الأعرابيين الذين كانوا يجرون وراءهم عباءاتهم، حيث يحتل باعة الفواكه أرصفة الشارع المهدمة الممتلئة بالنفايات. وكان يستمع إلى أصواتهم المرتفعة ويفكر «إنه العيد»، وكان أحياناً يداعبهم أيضاً وهو يحتسي الشاي في المقهى الخلفي من السوق:

ـ «ماذا تفعلون في بغداد؟»

كانوا يرمقونه شزراً ويقولون:

ـ «هل تعتقد أننا لا نصلح لبغداد؟»

وكان هو يرد بخبث:

ـ «أبداً، لم أقصد هذا، أعني أنها مدينة متعبة.»

كانوا يهزون رؤوسهم:

ـ «إنها مدينة محتالين.»

كان المعاون قاسم حسين يعرف أنهم على حق، وكان يتذوق هذه المرارة التي تمتـزج بكلماتهم. ففي هذه المدينة ما من أحد يحب أحداً. إن البسمات مبذولة سوى أنها مغلفة بالحنظل. وكان هو قد تذوق طعم المرارة مع الجميع، فالمـدير العـام الـذي سيجلس إزاءه في الساعة العاشرة طيب مادامت رائحتك

الخاصة لا تبلغ أنفه ولكنه سيتخلى عنك ويرفسك في مؤخرتك إذا ما وجد أنك لم تعد مفيداً. وكان يعرف أيضاً أنه يبالغ في عواطفه إزاء العاملين معه، مضفياً على وجهه سحنة الرجل الكبير القائد. ومع ذلك كان المعاون قاسم حسين يجلس طيلة ساعتين أو أكثر بأدب، أدب أجوف، ليستمع اليه بدون تركيز، وهو يثرثر حول أكثر الأمور تفاهة. وكان ثمة آخرون ينهضون مرتبكين ويعلنون بوقاحة: «ماذا كنا سنفعل بدونك؟» وكان هو يبتسم، مضفياً على نفسه أهمية لا يمتلكها، فيما ينسحب قاسم حسين، مختبئاً وراء كبريائه. ولعله بسبب هذه الكبرياء ذاتها تخلى عن جميع الذين كانوا أصدقاءه، حيث انطفأ قلبه مع الزمن. كان يرى نفسه أحياناً معلقاً إلى نافذة داخل سرداب، وثمة من يسوطه حتى ينبجس الدم من جسده، دون أن ينبس بكلمة واحدة. وكان هو يزداد صموداً وعناداً كلما إشتدت ضجة السياط.

ونهض قاسم حسين «ها هو حلمي الجميل يغادرني» وخطا باتجاه الشارع، دافناً نفسه بين الأجساد المتحركة في فوضى. إنها التاسعة وخمس دقائق. مازال هناك متسع من الوقت. كان يريد أن يتنزه في هذه المدينة التي لا تشبه المدن. فها هي رغم كل هذه البنايات التي ترتفع هنا أو هناك تخفي في قلبها الداخلي أحياءها القديمة: البيوت الضيقة المتلاصقة وأنهار المياه الآسنة التي تخترق شوارع، تمتلىء بأطفال متسخين، يتحركون داخل دشداشاتهم المهلهلة. كانت رجلاه قد سحبتاه إلى أزقة الفضل، حيث رأى النساء يجلسن أمام الأبواب، يتبادلن الأحاديث مع نساء أخريات، يجلسن أمام أبوابهن أيضاً. وحاصرته نظراتهن المتسائلة المستغربة، أي حيوان هو هذا الذي يخترق خلوتنا، وتنفس الصعداء عندما وجد نفسه مرة أخرى، خارج الأزقة وداخل السوق. واجتاز شارع الكفاح إلى الجهة الأخرى، حيث استقل سيارة أجرة:

ـ «إلى بارك السعدون.»

وبلغ مكتبه قبل الموعد بعشر دقائق. وجاءه المعاون يوسف:

ـ «هل تعرف أن الوزير غاضب؟»

وتساءل هو مستنكراً:

ـ «لماذا؟ ما الذي فعلناه؟»

ـ: «جاء إليَّ سكرتير المدير العام وأطلعني على كل شيء.»

ـ: «كل شيء؟ ماذا تعني؟»

ـ: «الوزير يتهمنا بالتقصير في كشف مدبري عمليات التخريب والأرهاب!»

وضحك قاسم:

ـ «إنهم ليسوا سوى حفنة من الصبيان المجانين.»

ـ: «أرجو أن تقول ذلك للمدير العام نفسه!»

ولكن المدير العام لم يشر إلى هؤلاء الصبيان المجانين ولو بكلمة واحدة أثناء الأجتماع الذي استغرق أكثر من ساعة. فقد تحدث كما يفعل دائماً عن كل شيء، دون أن يقول شيئاً معيناً بالذات. كان يتحدث عن نفسه. وعندما انتهى الأجتماع شعر المعاون قاسم حسين أنه يستعيد نفسه، هو الذي ينحدر إلى الصفر في حضور سيده.

- ٤ -

كان المعـاون قاسم حسين قد أخـرج عدة أضابير وراح يقرؤها: صبيان، أحـدهما في الخامسة عشرة والثاني في السابعة عشرة، كانا يخطان شعارات معادية للدولة على الجدران في منطقة الدورة بفرشاة وسطل مليىء بالصبغ الأحمر. إنهما معتقـلان منـذ يومين، ولكنهمـا ينكـران: «إننا من مؤيدي الحكومة، وكنا نزيل الشعارات المعادية بتلطيخها بالصبغ.» وكان ثمة سؤال: «حسناً، لماذا هربتم إذا كنتم من مؤيدي الدولة حقاً؟»، الجواب: «لقد خفنا منهم، معتقدين أنهم من الأعداء!»

وانفجر المعاون قاسم حسين ضاحكاً مع نفسه: «يالهما من أرنبين ماكرين!» ثم كتب بالخط الأحمـر على ورقـة التحقيق: «يمـدد توقيفهمـا أسبـوعـاً واحداً وتستحصـل موافقـة حاكم التحقيق الخاص بالدائرة.» وتحت ذلك وقع «معاون اللجنة الأولى» ثم وضع التاريخ ١٩٦٧/٥/٣.

لم تكن القضايا الأخرى الموضوعة أمامه لتختلف كثيراً عن القضية السابقة: ثلاثة صحافيين مشبوهين، يسكنون شقة في بداية شارع أبو نواس، ولكن ما من دليل واضح على أنهم يقومون بنشاطات معادية.

وكان ثمة تقرير أيضاً عن مجنون، يخطب كل يوم في شارع الرشيد، موجهاً شتـائم سياسية قديمـة، مازالت عالقـة برأسـه، إلى الدولة، مثيراً بذلك ضحك المارة. وابتسم قاسم «ماذا أفعل به؟ هل أعتقله، هو الآخر؟» ثم قذف بالورقة إلى الجهة اليمنى من المنضدة وقرع الجرس. دخل الحارس فطلب شاياً وراح يدخن.

بعد نصف ساعة، كان المعاون قاسم حسين يهبط إلى السرداب الواقع في الجانب الخلفي من البناية ووراءه يسير رجلان، ودخل الشرطي الذي كان يقف عند البوابة أيضاً. كان ثمة ضوء شاحب، يلقي بظلاله على السلالم الحجرية، وسمـع المعـاون قاسم حسين البـوابة تغلق وراءه فواصل هبوطه، ثم توقف عند المدخل وألقى نظرة طويلة على الرجل الذي كان يقف على رؤوس أصابعه، معلقاً

من يديه بسلسلة حديد إلى نافذة مغلقة عالية. كان الرجل يرتدي قميصاً أبيض، ممزقاً وبنطلوناً ملطخاً بالوحل عند الركبتين، يغالب النعاس. حاول أن يرفع رأسه عندما سمع أصواتهم ولكنه أخفق في ذلك، فقد سقط رأسه إلى الأمام وبدا أنه في غيبوبة طويلة.

قال المعاون قاسم حسين:

ـ «أيقظوه، أريد أن أكلمه.»

سأل أحد الرجلين:

ـ «هل نفك قيوده؟»

ـ: «نعم، نعم، إنه متعب جداً.»

وقال الشرطي الذي كان ممسكاً بالرجل حتى لا يسقط على الأرض، بلهجة تنم عن التعاطف وبشيء من الرقة:

ـ «لقد ضربوه كثيراً، دون أن يعترف. انه عنيد حقاً!»

وسأل قاسم:

ـ «منذ متى، وهو مشدود إلى النافذة؟»

ـ: «منذ أول المساء. لقد مضت عليه سبع ساعات، ربما أكثر.»

ـ: «هل تناول شيئاً من الطعام؟»

ـ: «كلا.»

كان الرجل مرمياً على الأرض مثل جثة، يتنفس بصعوبة بالغة. أشار المعاون قاسم حسين إلى الرجال الذين كانوا يحدقون هم أيضاً بشيء من التوجس إلى الضحية:

ـ «اتركوه لينام قليلاً، ثم اجلبوه الي. لا أريده أن يضرب بعد الآن.» وخرج.

●

ـ: «لا أعرف ما يمكن أن أقوله لك الآن. إنني حزين جداً، حزين حقاً!»

وانفرجت شفتا جليل محمود بصعوبة:

ـ «لماذا؟»

شعر المعاون قاسم حسين بالحرج، رغم كل المواقف الصعبة التي كان قد مر بها:

ـ «لأنك صديقي، بكل بساطة!»

وابتسم جليل محمود بصعوبة:

- «أنت صديقي القديم إذن، صديقي قاسم بلحمه وعظمه!»

قال المعاون قاسم حسين:

- «لم تتغير كثيراً ياجليل. أنت تسخر مني كما كنت تفعل في الماضي.»

قال جليل محمود متردداً:

- «لم أقصد ذلك.»

وانفعل المعاون قاسم حسين:

- «إننا لم نلتق منذ زمن طويل. وها أنذا بعد كل هذه السنوات أعثر عليك معلقاً إلى نافذة داخل سرداب!»

وتساءل جليل محمود بخبث:

- «ألم تكن تعرف بوجودي هنا؟»

امتعض المعاون:

- «لماذا تحرجني؟ هل تعتقد أنني كنت سأسمح لهم بتعذيبك، لو كنت أعرف؟ أقسم بشرفي أنني لم أعرف بوجودك هنا الا مساء هذا اليوم، ولا أعرف حتى التهمة الموجهة ضدك. متى أعتقلت؟»

قال جليل محمود:

- «قبل أسبوع. كنت معتقلاً في العيواضية، ثم جلبوني إلى هنا.»

وتساءل قاسم حسين:

- «ماذا فعلت؟»

-: «لا شيء.»

-: «أعني ما هي التهمة؟»

-: «لا أعرف حتى ذلك.»

قال المعاون قاسم حسين:

- «أنت تشك في! تعتقد أنني أستدرجك لتعترف.»

قال جليل محمود:

- «آسف ياقاسم! لم أقصد ذلك.»

وابتسم قاسم:

- «اللجنة الثانية هي التي جاءت بك إلى هنا. سأطلب إضبارتك لأرى التهمة الموجهة اليك.»

وعندما كان جليل محمود يغادر الغرفة قال له المعاون قاسم حسين:

ـ «لا تخف! سأحاول أن أساعدك.»
ثم أخرج من درج مكتبه علبة سجاير وقدمها له:
ـ «خذها ياجليل، أرجوك.»

●

عندما عاد جليل محمود إلى زنزانته ظل المعاون قاسم حسين متكئاً على مقعده، لا يبرحه حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت حياته تنساب أمامه مثل نهر، يشق طريقه في فلاة «كان يمكن أن نظل أصدقاء لو لا تلك الصدفة الصغيرة التي غيرت حياتي كلها». وفكر «أتراها كانت صدفة بالفعل؟» كان يتنفس بصعوبة، مختنقاً بعواطف الماضي، فنهض وفتح ضلفتي الشباك الذي كان مغلقاً «كان يمكن أن أكون معتقلاً معه الآن، لولا نعمان قادر». واستغرب من فكرة أن يكون معتقلاً، ولكنه لم يكن يجد الأمر صعباً، فالمعتقل بعد كل حساب، مكان مثل كل الأماكن الأخرى. وكان يعرف أيضاً أن الرجال الذين قد يعذبونه ليسوا سوى مخلوقات بائسة، بل وربما كانوا أكثر عاطفية حتى من غيرهم. وردد بصمت مع نفسه «حقاً، لقد حدث ذلك بمحض الصدفة.» كان ثمة ضوء يسقط في ماضيه فجأة، هنا أو هناك، فينيره مثل كهف، يدخله ضوء الشمس لأول مرة. كان والده يحلم مثل كل الآباء الآخرين أن يجعل منه رجلاً مهماً، وكان هذا يعني في نظره أن يدخل كلية الحقوق التي كان خريجوها يتبوأون مراكز بارزة في الحكومة. ولكن الدخول إلى كلية الحقوق كان أمراً، يكاد يكون مستحيلاً، بدون وساطة كبيرة. ثم خطر لوالده أن يقصد نعمان قادر، مدير شرطة كركوك الذي كان يكوي ملابسه عنده. ولكن مدير الشرطة بدل أن يرسل قاسم حسين إلى كلية الحقوق أرسله إلى كلية الشرطة، فقد قال لصاحب المكوى الذي لجأ اليه: «أنت مخطىء فيما يتعلق بمستقبل ابنك، فالمحامي ليس أكثر من شحاذ، يرتدي الروب الأسود. دعه يضمن مستقبله في مهنة أخرى. ليدخل كلية الشرطة!» وهكذا سافر قاسم حسين إلى بغداد، وفي جيبه توصية إلى أحد أعضاء لجنة القبول. وأشعل المعاون قاسم حسين سيجارته «أما هو فقد جاء إلى بغداد ليدرس الأدب.» وانتبه المعاون قاسم حسين إلى خشخشة الريح بين الأشجار، فنهض ووقف أمام النافذة المفتوحة، محدقاً في الليل، دون أن يفارقه الضوء الذي كان يسقط في حياته، ضوء الماضي. وهمس مع نفسه «أتراني قد تغيرت كثيراً؟» ثم فكر «انها المهنة، لابد من ذلك». ففي الكلية في بغداد تعلم قاسم، بشيء كثير من الدهشة في البداية أن العالم

بدونه يكون مستحيلاً «عالم بدون شرطة! من يمكن حتى أن يتصور ذلك؟» فهو لا يدافع عن نظام معين بذاته وانما يقف ضد الفوضى، فاذا ما اختفى الشرطي فان العالم سيمتلىء بالجرائم. ولكنه بعد مدة من الزمن نسي حتى هذه القاعدة وسقط في العادة. كان كل شيء يبدو بالنسبة له طبيعياً مثل كل الأمور الأخرى. ومع ذلك فان البداية كانت صعبة حقاً، فرغم كل شيء لم يكن متأكداً عما اذا كان قادراً على أن يقف أمام ضحيته ويعذبها. كانت هذه الفكرة تمنحه إمتيازاً خاصاً، إمتيازاً لا يمتلكه الآخرون. وكان هذا يجعله ينتفخ «أن تكون قوياً، قوياً جداً، وأن يهابك الآخرون!» ومع ذلك ظل شهوراً طويلة في العمل، يخجل من ممارسة سلطته هذه. كان يكتفي بمراقبة الآخرين ويتظاهر بأنه مثلهم، دون أن يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من ذلك. ولكنه كان يعرف أيضاً، بحكم تجربته أنه سوف يجتاز هذا الحاجز ذات يوم. «كان ثمة شاب، نسيت حتى اسمه، يقف أمامي مرتبكاً، خائفاً مثل فأر، وفجأة رأيت يدي ترتفع بآلية وتلطمه، فانبجس الدم من أنفه فلطخ باطن كفي. وامتلأت غضباً فضربته أكثر فأكثر. فاستغرب صاحبي الذي كان يشاركني غرفتي أن أكون بمثل هذه القسوة مع شاب، يرتجف من الخوف. ولكن صاحبي لم يكن يعرف ـ وهل يمكن له أن يعرف! ـ إنني كنت مع كل صفعة انما أهدم آخر حجارة في الحاجز الأخير.» وابتسم المعاون قاسم حسين، وهو يحدق في باطن كفه «إنني أشم رائحة دمه حتى اليوم». وهمس بوهن «انها المهنة». كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف «يالها من ليلة هادئة!» ومد يده إلى المنضدة والتقط المسدس الذي كان في غلافه تحت كومة من الأضابير، ودسه تحت حزامه، ثم خرج مسلماً نفسه لعواطفه التي كانت تغرقه في الماضي، ماضيه البعيد.

- ٥ -

إن المعاون قاسم حسين اذ يتذكر يومه الأخير مع جليل محمود، إنما يتذكر أيضاً يومه الأول الذي التقاه فيه؛ كان قاسم حسين قد عبر الجسر الجديد وانحدر نحو الصوب القديم لمدينة كركوك، حيث تقع المدرسة الثانوية على الجانب الشمالي من نهر خاصة صو الذي تجف مياهه تماماً طوال أشهر الصيف، فلا شيء سوى الحصى الملونة المكدسة والعصافير والطيور التي تنبش تلال النفايات المرمية على جانبي النهر. أما في أواخر الشتاء وبداية الربيع فانه يمتلىء بالسيول الجارفة الهادر ة التي تهدد في بعض السنوات محلة الجاي بالغرق.

في ذلك اليوم من العام ١٩٥٦ كان قد التقى بجليل محمود، رآه واقفاً أمام الصف في الطابق الثاني، يحدق من الشرفة في باحة المدرسة، بعيداً عن الطلاب الآخرين. جاء اليه وسأله: «أين يكون الصف الرابع الأدبي؟» إبتسم وقال له: «هل أنت طالب جديد؟» أجاب: «إنتقلت اليوم إلى هذه المدرسة.» مد يده إليه وصافحه: «ستكون معي في نفس الصف إذن.» وأخذه معه، حيث استمعا إلى مدرس التاريخ الذي كان يتكلم عن حكم سليمان الكبير في العراق. وسأل جليل محمود المدرس التركماني سامي العراقي الذي لم يكن يتقن الحديث باللغة العربية، مثيراً بذلك ضحك طلابه، عما اذا كان سليمان الكبير يتقن العربية أم لا. وغضب المدرس المتوجس: «كان يتكلم اللغة التركية، ألا تعتبر هذا كافياً؟» فضحك جليل محمود قائلاً: «وماذا يهمني من الأمر كله؟»

كانا يخرجان أحياناً في الأماسي ويظلان يتنزهان في شوارع كركوك الملتمعة؛ شارع العلمين، شاطرلو، التبة، نيو كركوك ثم يعودان ليجلسا في أحد المقاهي الصيفية الواقعة في مركز المدينة، محدقين في الليل وهو يحمل اليهما مع نسائمه الشمالية عبق البراري المزهرة.

وفي أحايين أخرى، في الربيع خاصة، كانا يتسللان إلى البرية التي تقع خلف مقبرة المصلى، فيسيران فوق سهول من الحندقوق وشقائق النعمان ومنقار

اللقلق الممتدة حتى الأفق، قاصدين بئر العاشقة، حيث تقطن مئات اليمامات البرية الرمادية. وكانا في طريقهما إلى هناك يمران بالعديد من الطواحين المهجورة فيتذكر جليل محمود جده الأكبر الذي كان طحاناً والذي يحفظ عنه الكثير من القصص التي كان والده يرويها له فيبدأ بغناء أغنية تركمانية قديمة:

أواه، أيها الطحان، أيها الطحان!
أنت صاحب الخان وأنا المسافر
أعطيك الحنطة
لتطحن لي الشعير.

وعند بئر العاشقة كانا يجلسان ساعات عديدة، محدقين في القرويات الكرديات القادمات من القرى القريبة أو يحاولان إصطياد القطا الذي يضل طريقه فيتخلف عن أسرابه المحلقة عالياً، وكانا يقذفان أحياناً بالحجارة داخل البئر فتحلق اليمامات فزعة. وكان جليل محمود يقول: «إنتبه ياقاسم، فقد تفزع العاشقة أيضاً!» وكان جليل محمود يضحك وهو يروي القصة التي يتداولها الناس الذين يسكنون في المصلى وجقور وبيريادي والجاي ومحلة اليهود عن فتاة تركمانية، اسمها كولسن، أحبت شاباً، إسمه ممد، لكن والدها التبان أصر على زواجها من ابن عمها قادر الذي كان يعمل قصاباً في السوق الكبير. قبل زواجها بيوم واحد اختفت كولسن وظل أهلها يبحثون عنها دون جدوى. وذات يوم جاء بعض القرويين المرعوبين إلى محلة جقور وتحدثوا عن بئر تغني خلف المقبرة:

إذهبوا إلى حبيبي ممد
وبلغوه حبي
فأنا قد مت
ليظل حبي خالداً.

فخرجت محلة جقور كلها، الرجال والنساء والأطفال، قاصدين البئر المغنية. وهناك سمعوا صوت كولسن الجميل، آتياً من قعر البئر. ولكن أحداً لم يجرؤ على الهبوط، فقد كانت الأفاعي تغطي الفوهة. ظلوا حائرين وكانت كولسن لاتزال تغني:

ليأت حبيبي ممد
فالقلب العاشق
لا يعرف الخوف.

إذ ذاك تقدم ممـد وهبط متدلياً إلى البئر بحبل، شدوه على وسطه، فتحولت الأفاعي إلى يمامات بيض، تحلق فوق رؤوس الناس. وعندما أخرج ممـد حبيبته من قعر البئر كانت تضيء مثل قمر في ليلة صيف. وما زال الناس بعد أكثر من أربعين عاماً مرت على هذه الحكاية يتحدثون عن كولسن التي ماتت ليظل حبها خالداً.

●

كان المعـاون قاسم حسين يفكـر في صديقـه الملقى داخـل السـرداب الأنفرادي عندما إستدعاه المدير إلى غرفته في اليوم التالي:

ـ «عرفت أنك تحدثت أمس مع الموقوف جليل محمود. هل حصلت منه على شيء؟»

فكر المعاون قاسم حسين مع نفسه «ياللتعساء، إنهم يتجسسون علي أيضاً!»

قال بهدوء:

ـ «لم أتحدث معه عن موقفه السياسي. كان صديقي في الثانوية، فلم أجد بأساً في دعوته إلى غرفتي.»

نهض المدير وغادر مكتبه، حيث جلس على مقربة من المعاون قاسم حسين:

ـ «هذا شيء رائع منك. أنت تعرف كم أنا أثق فيك. لقد تعبنا معه دون أي نتيجة. إنني أوكل قضيته اليك.»

شعر المعاون قاسم حسين أنه محاصر. كان ذلك أكثر مما يقدر عليه، ومع ذلك حاول أن يقول شيئاً:

ـ «هذا صعب. إننا أصدقاء. لن أقدر أن أمسه بسوء!»

ضحك المدير:

ـ «لم أطلب منك أن تعذبه. لقد عذب طوال أسبوع، دون أن يفتح فمه بكلمة. واذا كنا أخفقنا معه بوسائلنا فقد تنجح معه بصداقتك.»

ـ: «ولكن....»

ـ: «إنه أمر يامعاون قاسم.»

ثم أضاف وهو يعود ليجلس وراء مكتبه:

ـ «إن صديقـك الصحـافي هذا قد يكـون من الـذين يلعبون بالنار. أنت

تعـرف أننـا عثـرنـا على اسمه بين أسماء أخرى داخل أحد الأوكار السرية التي داهمنـاها. والتقرير المرفوع عنه ليس في صالحه. إننا لا نعرف حقيقة وضعه، ولكن لا ينبغي لنـا إهمـال أي معلومـات مهما كانت بسيطة، عندما يتعلق الأمر بالجماعات الأرهابية. أنت تعرف ما يعنيه ذلك لأمن البلاد. واذا كان متورطاً فقد نستطيع إنقاذه قبل فوات الأوان. أنت تعرف ذلك يامعاون قاسم. والآن دعنا نرى شطارتك.»

●

لقد تعودت ياقاسم أن تنظر في عيون الرجال المرتجفين أمامك وتضحك. تعـودت الـدم الـذي يلطخ يديك، تعودت رائحة سردابك المعتم، ولكن أتراك تستطيع هذه المرة أن تحدق في عيني صديقك، دون أن تشعر بالفزع من نفسك؟

أواه، أيها الطحان، أيها الطحان
أنت صاحب الخان وأنا المسافر.

- ٦ -

فتح المعاون قاسم حسين إضبارة جليل محمود وراح يقرأ فيها. كان المساء قد هبط على مكتب التحقيقات وهدأت الحركة ما خلا بعض الأصوات المسرعة التي كانت تدخل مكتبه بين فينة وأخرى من معتقلين جدد، يجلبون من بيوتهم ويرمون في غرف الأنتظار حتى اليوم التالي. ولم يكن خافياً على المعاون قاسم حسين أن صديق مدرسته القديم قد اختار الطريق الصعب.

إسمك؟ جليل محمود سالم

شغلك؟ صحافي

عمرك؟ ٣٠ سنة

محل عملك؟ جريدة البرق

عنوانك؟ أعظمية ـ الصليخ ٢٥ ب/١٢

كانت الأسئلة الأخرى مثل كل الأسئلة التي كان قد وجهها إلى مئات المعتقلين في حياته ولكن المشكلة كانت تكمن في الأجوبة. إنها تضج بعناد، كان قد عرفه دائماً في جليل محمود. كان يعرف أن جليل محمود لا يمكن أن ينهار بسهولة، ولكنه كان يعرف أيضاً أن صديقه القديم ليس من الذين يقذفون القنابل على السيارات ويقتلون الناس، فهو أرهف من أن يفعل ذلك. وطوى المعاون قاسم حسين الأضبارة، واضعاً إياها فوق أضابير أخرى، كانت تتكدس أمامه وخرج إلى الشارع.

بعد نصف ساعة كان يقف أمام بيت جليل محمود في الصليخ، ونظر إلى ساعته، إنها السابعة والنصف مساءاً. كان الظلام الشفاف يهبط وئيداً فوق المدينة. وقف متردداً للحظات، ثم تقدم وقرع الجرس. إنتظر قليلاً، لم يكن ثمة صوت في الداخل. قرع الجرس ثانية دون جدوى. عاد إلى سيارته التي كانت تقف على الرصيف ومضى متجهاً إلى لا مكان. كان المعاون قاسم حسين قد قرأ كل المعلومات المتعلقة بحياة صديقه القديم، وزوجته هدى عبد القادر، الموظفة

في مديرية الكهرباء وطفلته الصغيرة نادية. كان المعاون قاسم حسين قد فكر في أن يلتقي بهدى، فقد تفيده في العثور على مخرج من الورطة، ولكنه كان يريد قبل كل شيء أن يُطمئنها عليه، كواجب شخصي تجاه صديقه، على الرغم من أنه لم يكن قد طلب ذلك منه. ولكن ها هو يخفق حتى في مهمته هذه. وقال المعاون قاسم حسين لنفسه «ربما ذهبت لتقيم مع أهلها، فمن الصعب على امرأة في مثل وضعها أن تظل وحدها في بيتها.» ظل المعاون قاسم يتنقل بسيارته من شارع إلى آخر، دونما هدف. ثم رأى نفسه أمام نادي العدلية في الوزيرية. هبط من سيارته واجتاز ممر الحديقة الطابوقي وانزوى في الركن الشمالي، حيث وجد مائدة خالية. وجاء النادل الآثوري البدين:

- «نعم، ماذا تشرب؟»

-: «ربع عرق أسود مع مازة مشكلة.»

كان المعاون قاسم حسين قلقاً، يفكر عما اذا كان يتوجب عليه أن يلجأ إلى الخشونة مع صديقه أم لا. وقال في نفسه «إن المدير العام قد جاملك عندما قلت له أنك لن تقدر على تعذيب صديقك، ولكنه ينتظر منك النجاح، فما لم تفتح فم جليل محمود المغلق فلن تجد معنى لعملك بعد ذلك.» وشعر بالمرارة في فمه «ولكن ماذا لو كان بريئاً بالفعل وليس عنده ما يقوله.» وحاول أن يشكل القصة من جديد: «ليس هناك سوى ورقة، كتب عليها إسمه وعنوانه، عثر عليها في الوكر السري. ولم تكن هناك أي قائمة، كما زعم المدير العام. إسم وعنوان فقط، بدون أي تفاصيل. وكان من الصعب الآن معرفة سر وجود اسمه هناك. فقد أفلت صاحب الشقة من قبضة الشرطة كالعادة واختفى مرة أخرى مثل كثير من الأشياء التي تختفي في هذه المدينة.» وجاهد أن يدافع عن صديقه أمام نفسه «من يدري كيف وصل اسم جليل محمود إلى هناك؟ ربما بالصدفة! أما التقرير فقد كتب بعد اعتقاله، عندما اتصلت الدائرة بوكيلها العامل في الجريدة، طالبة منه تزويدها بمعلومات عن جليل محمود. فلم يجد هذا الوكيل بأساً من أن يقول أنه معروف بصورة عامة بعلاقاته مع اليساريين، ولا شيء آخر، ما من دليل!» ولكنه أضاف «ومع ذلك فان ماضيه، عندما كان طالباً في الكلية، حيث أمضى ثلاثة أعوام في السجن، بسبب مشاركته في إحدى المظاهرات، يجعل كل شيء ممكناً.» وظل المعاون قاسم حسين يحتسي العرق حتى ساعة متأخرة من الليل، غير آبه لضجة السكارى المتكدسين هنا أو هناك «حسناً اذا كان جليل محمود قد اختار بنفسه

مصيره فليس ثمة ما يرغمني على أن أدفع عنه الحساب، وعليه أن يعرف ذلك.»

دفع قاسم حسين الحساب وخرج، متجهاً إلى مكتبه. بعد عشرين دقيقة كان هناك ورأى جليل محمود المعاون قاسم حسين يفتح عليه باب غرفته مع اثنين آخرين من رجاله ولكنه تعمد البقاء جالساً في مكانه. قال المعاون قاسم حسين الذي كان يتقدم نحوه بخطوات متعثرة مسرعة:

ـ «إسمع ياجليل، أنت صديقي، لقد سكرت الليلة من أجلك. أنت تعرف ذلك. ولكن هيا ياجليل!»

كانت الكلمات تتناثر من فمه، مخلوطة برائحة العرق. رد جليل محمود بهدوء:

ـ «ماذا تعني ياقاسم؟»

وضحك قاسم بطريقة ساخرة:

ـ «ماذا أعني؟ أنت تحرج موقفي. أنت تسخر مني!»

ـ: «إنني لم أطلب شيئاً منك.»

ـ: «لماذا تتستر عليهم؟ إنهم قتلة ومجرمون!»

ـ: «أنت واهم ياقاسم. أنا لا أخفي شيئاً. أنت تعرف أنني ضد القتل والأرهاب، مهما كانت المبررات.»

وزمجر المعاون قاسم حسين:

ـ «لماذا تريد أن تظل مخدوعاً بهم؟»

ونهض جليل محمود:

ـ «لست مخدوعاً بأحد. ألا يمكن أن تفهم ذلك؟»

وصرخ قاسم حسين بانفعال:

ـ «قل لي أسماءهم. لا أريد سوى الأسماء.»

فرد جليل محمود بهدوء:

ـ «لا أعرف أحداً. أتريدني أن أعترف على الأشباح؟»

شعر المعاون قاسم حسين أنه يختنق. لم يكن يعرف ما الذي ينبغي عليه أن يفعله. مشاعر مختلفة تنبجس في أعماقه، وقاوم كل رغبات جسده. كان يرتجف. فها هو يقف بين ذكرى عاطفة قديمة ومهمته التي كرس حياته من أجلها، مهمته التي لا يكون شيئاً بدونها. كانت رائحة العرق تفوح منه وتملأ الغرفة. ورأى يده ترتفع وأصابعه تتشنج:

- «إعترف أيها الغبي!»

وهوى بكفه على وجه جليل محمود الذي بوغت بالضربة، ولكنه لم يقل شيئاً، ظل صامتاً، تتدفق عبره مشاعر، لا يعرف مساراتها. كان تائهاً بين الليل والنهار، يملؤه حزن شبيه بحزن من يراقب صديقاً يموت. ولم يكن قاسم حسين في نظر جليل محمود ذلك الصديق الواقف على شرفة الموت، بل كان ميتاً بالفعل منذ زمن، زمن طويل، وكان يود أن يكاشفه برأيه فيه، ولكن ما جدوى كل ذلك الآن؟

وانهار المعاون قاسم حسين، مستنداً إلى الجدار. كان يبكي:

- «حسناً، أنت الذي دفعتني إلى ذلك. لقد أرغمتني.»

ظل جليل محمود صامتاً. وكان يتحرر قليلاً قليلاً من حزنه، داخلاً الضوء الذي يتدفق من كبريائه. التفت المعاون قاسم حسين إلى الرجلين الآخرين اللذين كانا لايزالان يقفان وراءه:

- «لماذا تحدقان في؟ إنني أبكي. أغبياء، أغبياء!»

ثم نظر في وجه جليل محمود الذي كان ساكناً، خالياً من أي تعبير وخرج متعثراً بخطواته، كما لو أنه يهرب من حيوان، يهم لأفتراسه.

●

تكون الليالي عادة طويلة على الضحية وهي تجلس في غرفة التعذيب. ولكن جليل محمود الذي يعاني وحدته مع نفسه لم يفكر لحظة واحدة في الزمن. فقد تعلم أن يتحرر من كل شيء: الزمن، وجسده قبل كل شيء.

وفي غرفته ظل المعاون قاسم حسين يشرب العرق ويبكي حتى الفجر. كان يقول لنفسه «ما هذا الذي تفعله أيها الرجل؟ أليس غريباً أن تبكي وتثمل روحك بالعرق؟ حسناً، قد يكون صديقك ولكنه اختار أن يقف في الطرف الآخر من حياتك؟ أتراه يدرك ذلك؟»

عندما خرج المعاون قاسم حسين إلى الشارع كان قد نسي جليل محمود تماماً. وفي طريقه إلى بيته في الوزيرية فكر أنه متعب كثيراً. وكان دون أن يعي يسقط خارج نفسه، مهاجراً في أزمنة مختلطة، لا يعرف إن كانت توجد في الماضي أو المستقبل.

لم تعد أميناً لنفسك ياقاسم، يداك ترتجفان وعيناك تبكيان! أي رجل أنت؟ أنت الذي اعتدت على حمل السياط كل هذه الأعوام!

من نافذة غرفته في بيته ظل يحدق في الصباح، وهو يرتفع فوق شجرة التوت التي كانت تواجهه في الطرف الآخر من الشارع.

- ٧ -

ـ: «إذا كنت صديقه حقاً فافعل شيئاً من أجله!»

قالت هدى عبد القادر وهي تكتم عواطفها المتفجرة بصعوبة. ولكن صوتها كان محملاً بالأنكسار:

ـ «انه لم يفعل شيئاً. أؤكد لك ذلك.»

كان المعاون قاسم حسين يجلس قريباً منها. ولم يكن في الغرفة التي تشغلها هدى أحد سوى صديقتها الموظفة الأخرى سامية. قال قاسم مرتبكاً:

ـ: «إنني هنا كصديق لجليل. لا علاقة لعملي بالزيارة. كل ما في الأمر هو أنني أريد انقاذه.»

وهمست هدى:

ـ «لا أعرف كيف أشكرك على ذلك!»

ـ: «عفواً. هذا أقل ما أستطيع عمله إزاء جليل. إنني آسف لأزعاجك. أرجو ألا تكون التهمة الموجهة ضده صحيحة. أرجو ألا يكون على علاقة بالمخربين، لأن ذلك يصعب الأمر كثيراً.»

رفعت هدى كفيها صارخة:

ـ «ما هذا الذي تقوله؟ إنها أكاذيب ملفقة ضده. إنني أعرفه جيداً. إنه زوجي وتستطيع أن تثق بما أقوله لك.»

وأجهشت بالبكاء:

ـ «لابد إنكم تعذبونه الآن. إنني أعرف أساليبكم في معاملة الناس.»

فرد المعاون قاسم حسين مواسياً:

ـ «انه بخير. لا ينبغي أن تبكي.»

فهزت هدى رأسها غير مصدقة:

ـ «أعرف ما تفعلونه بالناس في معتقلاتكم.»

قال المعاون قاسم حسين مبتسماً:

ـ: «لا أعتقد أن سمعتنا سيئة إلى هذا الحد!»

ـ: «أنت أكثر معرفة مني بذلك.»

عندما نهض المعاون قاسم حسين ليغادر الغرفة قال لهدى:

ـ «إجلبي له إلى الدائرة بطانيتين ووسادة وسيجاير. سأكون هناك غداً في الساعة الخامسة مساءاً.»

نهضت هدى وصافحته:

ـ «إنني آسفة على ما بدر مني. تعرف كم أنا قلقة! أشكرك جداً. أرجو أن تقف إلى جانبه.»

ـ: «يمكنك أن تثقي بي. انه صديقي رغم كل شيء. في أمان الله.»

ـ: «في أمان الله.»

●

ألقى المعاون قاسم حسين نظرة على الصورة الكبيرة المعلقة فوق سينما الخيام ومط شفتيه سخرية من الفيلم الأميركي الذي كانت الدار تعرضه (المسدس الذهبي) وفكر «انهم لا يعرضون سوى السخافات» ولكنه قرر أن يشاهد الفيلم في اليوم التالي «أين يمكن أن يذهب إنسان مثلي؟ يالهي لكم أشعر انني إنسان مريض، يملؤني صراخ، أجهل ينبوعه! إنني ألجأ إلى الشارع، أجلس في مقهى ما أو أدخل باراً منزوياً في ركن من شارع، ولكن بعد كأسين أو ثلاثة ينتابني قلق جديد فأسقط في الوحدة.»

كان المعاون قاسم حسين قد عبر شارع الرشيد إلى رصيفه الآخر، سائراً باتجاه باب المعظم. سأل نفسه «إلى أين أنت ذاهب ياقاسم؟» وابتسم «لا يهم، لا يهم!» كان ثمة شيء ينهش أعماقه. كان مقتولاً رغم خطواته الثابتة ووجهه الصلب الجامد. وقال لنفسه «إنني جزيرة قاحلة حقاً!» ولكنه فكر لحظة في الراقصة مديحة التي كان يذهب إلى شقتها في المسبح بين حين وآخر «أعرف أنها ما كانت لتهبني شيئاً لولا الحماية التي أوفرها لها.» توقف لحظة أمام أحد المتاجر، محدقاً في واجهته الزجاجية: «ومع ذلك سأزورها الليلة.»

وعندما بلغ مقهى البرازيلية توقف لحظة ثم دخل حيث وجد نفسه بين مجموعة من الزبائن الصامتين المحدقين في الشارع كما لو أنهم يرصدون حركة المارة «هذه هي اذن مقهى المثقفين!» لم يكن قاسم قد دخل هذه المقهى من قبل، ولم يكن ليدخلها لولا التقرير المرفوع عن جليل محمود. فقد كان هنا يلتقي

بأصدقائه. جلس في زاوية من المقهى وراح يحدق في وجوه الرواد «لابد أنهم جميعاً يكرهوننا.» ووضع النادل أمامه فنجاناً من القهوة مع قدح ماء ثم انسحب بتأدب. إرتشف قاسم قهوته بهدوء ثم راح يحدق هو الآخر في الشارع، مفكراً في جليل الذي كان ينبغي أن يكون جالساً قربه الآن. وشعر بحنين حقيقي اليه. وقال لائماً نفسه «يالي من وحش، كيف جرؤت على ضربه. سأذهب وأعتذر منه.» كان يريد أن يبكي ولكنه اكتفى بدفع حسابه وخرج إلى الشارع.

●

تكون بغداد مبهرجة في الصيف. تمتلىء الشوارع بالرجال والنساء أكثر من أي وقت آخر حتى لكأن العالم في عيد، وعند ذاك يشعر المرء برغبة عميقة في أن يدفن نفسه وسط الجموع، حيث تكون للضجة العامة قوة الحياة.

وكان المعاون قاسم حسين يسير مندفعاً، يهزه الأرتباك، خائفاً من أن يستيقظ فجأة فيكتشف أن سعادته المباغتة هذه لم تكن إلا حلماً من أحلام ماضيه الميت.

- ٨ -

فتح نافذة مكتبه ووقف يحدق في الأشجار الملتمة داخل الليل. كانت الريح المكثفة برائحة الصيف الصحراوي تعيده إلى الخوف والعذاب اللذين كان يشعر بهما، لا في قلبه فحسب وانما في كل حركة من حركات جسده الذي بدأ يكتشف هزاله. كان عليه أن يذهب إلى جليل محمود، أن يفتح باب سردابه ويدخل. كان عليه أن يقول له «إنني أعتذر ياجليل، إنني أعتذر.» ولكن أيقدر أن يفعل ذلك، حيث يقف رجاله وراءه؟ أيقدر أن يفتح فمه أمامهم، دون أن يفقد إعتباره إلى الأبد؟ انهم سيكتبون تقاريرهم ضده. ليس هذا ما يهمه، ولكن أتراه يكون قادراً على عبور الخجل الذي سيعتوره في حضوره؟

قرع الجرس فدخل الحارس:

- «إذهب وانظر إن كان الرجل الموقوف في السرداب مازال مشدوداً إلى النافذة!»

إبتسم الحارس متملقاً:

- «معذرة ياسيدي! لم نفعل له أي شيء. نعرف أنك كنت غاضباً عليه يوم أمس... ولكننا...»

قاطعه وهو يشعر بالراحة:

- «حسناً فعلتم.»

-: «هل تأمر شيئاً ياسيدي؟»

-: «كلا، كلا، شكراً.»

ألقى المعاون قاسم حسين بنفسه على كرسيه، وهو يشعر أن كابوسه الذي لا شكل له يزايله. وفكر أن جلاديه الصغار العاملين معه أكثر رهافة منه في مشاعرهم. ربما كانوا يتملقونه، بل أنهم كانوا يبغون مداراته في الحقيقة. إن مثل هذا لا يمكن أن ينطلي عليه. ولكنهم بعملهم هذا كانوا يؤكدون له أنهم ليسوا مجرد آلة، تبتكر الموت والعذاب. إن ما يفصل بينه وبينهم هو أنهم يعتبرون مهنة الجلاد

وظيفة مثل كل الوظائف الأخرى في حين أنه يعتبر عمله الأستثناء الوحيد الممكن بين كل المهن الأخرى. فهم مثل كل الموظفين الآخرين يتشكون من قلة رواتبهم ويقدمون له قوائم وهمية عن سيارات الأجرة التي يفترض أنهم يضطرون للجوء اليها بسبب العمل. كان يشعر أنهم يسرقونه ويقول لنفسه «كيف يمكن أن أثق في أمثال هؤلاء اللصوص؟» وعندما طرح الأمر ذات يوم على المدير العام قال له هذا بكل هدوء: «دعهم يامعاون قاسم يعتقدون أنهم يسرقوننا فذلك يجعلنا أكثر سيطرة عليهم. إن رواتبهم قليلة جداً. كيف يمكن أن يخلصوا لنا اذا لم نمكنهم من سرقتنا قليلاً. تساهل معهم يامعاون قاسم فانهم يستحقون رعايتنا!» وفكر المعاون قاسم حسين وهو مختنق خجلاً «إنهم يهينوني عن حق، هذه المرة على الأقل. لقد تخليت عن صديقي، ولكنهم تمسكوا به من أجلي. أليس هذا غريباً؟ لا، أبداً. إنهم على حق، إنهم على حق!»

كان قاسم يعتقد أنه قد نفض نفسه تماماً من ماضيه. ولكن ها هو ينهض أمامه فجأة ويشعره بذله. كان قلقاً وخجلاً في الوقت ذاته. فهو اذ يستعيد ماضيه وبالذات علاقته مع جليل محمود انما كان يدين كل الأعوام التي أمضاها في مهنته هذه. أخرج علبة سيجايره وأشعل سيجارة، لعله يخفف قليلاً من اضطرابه النفسي الذي كان ينوء تحت ثقله «حسناً، سأذهب اليه واعتذر منه ولسوف يفهم موقفي.» فتح الباب وخرج إلى الممر الذي يؤدي به إلى السرداب المغلق. توقف قليلاً عند الباب. لحق به إثنان من الحراس الذين كانوا يجلسون على مصطبة رمادية ووقفا وراءه. بعد برهة تقدم منه أحدهما:

ـ «هل نفتح الباب ياسيدي؟»

لم يكن يعرف ما يريد. ولكنه قال بعد تردد قصير:

ـ «كيف هو؟»

ـ: «إنه بخير.»

وتقدم الشرطي ليفتح الباب. أوقفه المعاون قاسم حسين:

ـ «لا داعي لذلك. سأزوره فيما بعد.»

وتراجع فيما لحق به الشرطي:

ـ «سيدي، لقد طلبت إجازة لمدة أربعة أيام. أريد أن أزور أهلي في سوق الشيوخ. لم أحصل على إجازة منذ ثلاثة شهور.»

قال المعاون قاسم حسين وهو يسرع الخطى باتجاه البوابة الخارجية:

ـ «بسيطة! بسيطة!»

ثم توقف على مقربة من مركز الحراسة. كان ثمة شابان متكئان على الجدار، يحيط بهما ثلاثة من رجاله، يحمل أحدهم في يده خيزارنة يضربهما بها بين حين وآخر على أكتافهما في حين كان الآخران غارقين في الضحك.

سأل المعاون قاسم حسين:

ـ «ها... ماذا بهما؟»

أجاب أحد الرجال:

ـ «إنهما يرفضان أن يشتما غيفارا.»

قال المعاون قاسم حسين:

ـ «لماذا لا تشتمانه؟ هل هو الله؟»

رد أحدهما:

ـ «لأننا لا نعرفه.»

ضحك الرجل الذي كان يحمل في يده الخيزرانة وقال، موجهاً كلامه للمعاون قاسم حسين:

ـ «إنهما من كلية الآداب. بسيطان... لا يعرفان غيفارا! حسناً... أشتما جونسون.»

قال الشاب الثاني الذي كان يبدو أصغر من صاحبه الآخر بشيء من التحدي:

ـ «لن نشتم أحداً!»

ضربه حامل الخيزرانة على كتفه وهو يقول:

ـ «كلاب... لا يشتمان حتى جونسون!»

قال المعاون قاسم حسين مستهزئاً:

ـ «اشتما أي شخص تختارانه وسوف أطلق سراحكما!»

قال أحد الرجال الثلاثة:

ـ «أشتما خيون المحيسن!»

تساءل المعاون قاسم حسين مستغرباً:

ـ «من هذا؟»

ضحك الرجال الثلاثة. قال أحدهم:

ـ «إنه بائع مرطبات في الميدان.»

قال المعاون قاسم حسين بجدية:

ـ «حسناً أشتما خيون... الـ... ما اسمه؟»

ـ: «خيون المحيسن.»

ـ: «يالله... انه مجرد بائع مرطبات!»

ظل الشابان صامتين. قال المعاون قاسم حسين برصانة:

ـ: «ما أهمية أن تشتما أي شخص في الدنيا؟ هل ينقص هذا من قدركما؟ لماذا كل هذا التطرف والعمى؟ أتسمون هذا سياسة ونضالاً؟ هل أشتم حتى تقتنعا؟ خراء على محمد علي كلاي وأم كلثوم ورئيس الوزراء ومدير الشرطة وأمين العاصمة... والعالم كله! خذوهما إلى الموقف. سوف أراهما فيما بعد.»

وغادر ملقياً بنفسه في الشارع.

- ٩ -

كانت مديحة تقف وراء الباب، مرتدية ثوباً أزرق قصيراً، مبقعاً بزنابق بيضاء وقد عقصت شعرها المصبوغ بالحناء إلى الوراء. استقبلت المعاون قاسم حسين بابتسامة عذبة وجرته من يده إلى غرفة الاستقبال وهي تقول:

ـ «ماذا بك؟ إنك تبدو شاحباً اليوم. عندي أصدقاء. تعال لتتعرف عليهم!»

كان المعاون قاسم حسين قد أصبح وسط الغرفة، حيث شاهد رجلين كهلين، يرتديان ملابس كردية، يتصدران المكان وراء طاولة تتناثر فوقها الأقداح مع قنينتي ويسكي وصحون من المازة. وإلى يمينهما كانت تجلس سميرة، العاهرة الشابة التي كان غالباً ما يلتقيها في شقة مديحة. وكان ثمة عازف عود عجوز، يعمل في الأذاعة. نهض العازف الذي كان المعاون قاسم حسين يعرفه، هو الآخر وقالت مديحة، منبهة الكرديين الجالسين إلى أهمية ضيفها:

ـ «السيد قاسم، معاون أمن، كل بغداد تحت سلطته. إنه أعز أصدقائي.»

نهض الكرديان بتثاقل ومدا يديهما ليصافحا المعاون قاسم حسين الذي ألقى عليهما نظرة احتقار صامتة. حاولت مديحة مداراة الموقف:

ـ «إسماعيل أغا وقادر أغا من معارفي القدامى. إنهما من أربيل.»

قال المعاون قاسم حسين:

ـ «تشرفنا!»

ووضع إسماعيل أغا أمامه كأساً:

ـ «تفضل وشاركنا الشرب!»

ومدت مديحة يدها إلى كتف المعاون قاسم حسين، محتضنة إياه بود:

ـ «لماذا تغيبت كل هذه المدة؟ إنني زعلانة.»

ضحك المعاون قاسم حسين وقال:

ـ «ها أنذا قد جئت. تعرفين إنني مشغول دائماً.»

ثم التفت إلى سميرة التي كانت ترتدي ثوباً قصيراً جداً، واضعة ساقاً فوق أخرى وقال:

ـ «كيف أنت ياسميرة؟»

فأرسلت له قبلة في الهواء، وفكر «لابد أنها ثملة كالعادة!» قالت سميرة، مع ضحكة داعرة:

ـ «إنني مع ضيوفنا الكاكوات الليلة.»

قال المعاون قاسم حسين:

ـ «وأنا؟»

أجابت سميرة:

ـ «كنت أعتقد أنني لا أعني شيئاً بالنسبة لك.»

رفعت مديحة كأسها:

ـ «هيا... لنشرب كأساً!»

رفع الجميع كؤوسهم ما عدا سميرة التي كانت تنفث دخان سيجارتها حلقات في الجو الراكد، رغم النافذة المفتوحة. قالت مديحة:

ـ «إرفعي كأسك ياسميرة!»

ثم التفتت إلى الآخرين قائلة:

ـ «لنشرب نخب الحب!»

أضاف قادر أغا:

ـ «نخب الحب والحكومة!»

احتج المعاون قاسم حسين:

ـ «ولماذا الحكومة؟»

أجاب إسماعيل أغا ضاحكاً:

ـ «وهل هناك حكومة أحسن من حكومتنا؟»

وصاح العازف العجوز الذي ظل صامتاً كل هذا الوقت:

ـ «تعيش الحكومة!»

فرد اسماعيل أغا بحماسة:

ـ «تعيش الحكومة!»

وشربوا نخب الحكومة التي كانوا جميعاً يشعرون أنهم مدينون لها بصورة ما، الا المعاون قاسم حسين الذي كان يشعر أن الحكومة نفسها مدينة له.

قالت مديحة:

ـ «اسماعيل أغا وقادر أغا من كبار رؤساء العشائر في الشمال. لابد أنك سمعت بهما. إنهما يملكان كل قرى أربيل!»

سأل قاسم، موجهاً حديثه إلى الأغوين اللذين كانا منتشيين:

ـ «كيف هي أحوال الملا مصطفى؟»

ضحك إسماعيل أغا وقال شيئاً باللغة الكردية لقادر أغا، ثم التفت إلى المعاون قاسم حسين:

ـ «بشرفي وشرفك، لولا المفاوضات التي تجريها الحكومة معه بين حين وآخر وتفك عنه الحصار لما صمد أمام رجالي شهراً واحداً. لقد قلت هذا أمس لصديقي وزير الدفاع. هل تعرف أن الجيش هو الذي يخربط شغلنا؟ قلت لهم ألف مرة، أتركوا الأمر لنا وسوف نجلب لكم الملا مصطفى في قفص لتعرضوه في ساحة التحرير! ولكنهم مع الأسف لا يستمعون الينا. ماذا نعمل؟»

أضاف قادر أغا:

ـ «لقد انتهى الملا مع انتهاء الشتاء. هذه المرة لن يصمد أكثر من شهر. بالمناسبة هل تعرف سليمان سامي، مدير أمن أربيل؟ انه صديقنا جداً وقد جاء معنا إلى بغداد. انه رجل نادر، جوهرة. العمل صعب مع كل هؤلاء المشاغبين في مدينة مثل أربيل: الشيوعيون من جهة والبارتيون من جهة أخرى! ولكنه عرف كيف يؤدبهم. انه رجل، رجل عظيم!»

قال المعاون قاسم حسين بهدوء:

ـ «إنني أعرفه. لقد تخرج قبلي بدورتين.»

قالت مديحة:

ـ «ما هذا؟ هل أنتم هنا لتتحدثوا في السياسية؟ لعن الله السياسة.»

وافق الأغوان وقال عازف العود:

ـ «تسقط السياسة!»

رفع قادر أغا كأسه:

ـ «وتعيش الحكومة!»

فأضافت سميرة:

ـ «ويعيش.....»

قالت مديحة مؤنبة:

- «إنك لا تخجلين ياقحبة. هيا انهض يااسماعيل أغا وخذها إلى الغرفة الأخرى!»

ثم التفتت إلى الآخرين وقالت مازحة:

- «هي التي تحارشت!»

إمتعض المعاون قاسم حسين بعض الشيء فرفع كأسه وجرع رشفة كبيرة فيما راح العازف العجوز يدندن على عوده. قالت مديحة:

- «هيا اعزف لنا شيئاً ياحمودي ولا تجلس كالصنم!»

وبدأ العازف العجوز يغني بصوت مختنق برائحة التبغ والويسكي:

ياليل، ياليل، ياليل

أمان، أمان، أمان، أمان، أمان

يا، يا، يا. . . . ليل!

كانت سميرة قد دخلت مع إسماعيل أغا إلى غرفة النوم وأغلقا الباب وراءهما. شعر المعاون قاسم حسين بالأختناق، دون أن يكون قادراً على ايقاف أفكاره التي كانت مركزة على شروال إسماعيل أغا المنتفخ «لابد أنه قد نزعه الآن ووضعه على الطاولة البيضاء التي طالما رميت بنطلوني عليها». كان يشعر بالأنكسار، ولذلك نهض وقال:

- «إنني ذاهب.»

نهضت مديحة، مستغربة:

- «إلى أين؟ إننا لم نبدأ حفلتنا بعد!»

ورافقته حتى الباب الخارجي. قال المعاون قاسم حسين غاضباً:

- «ضيوفك لا ينقطعون!»

قالت مديحة برجاء:

- «أعذرني! إنهم صيد ثمين. لقد أعطوني مئة دينار. تعال غداً صباحاً. لن يكون هناك أحد. سوف أنتظرك.»

خرج المعاون قاسم حسين، دون أن يودعها فيما ظلت تردد:

- «مع السلامة! أهلاً وسهلاً!»

ثم عادت إلى قادر أغا الذي كان فرحاً بمغادرة ضيفها الثقيل. وجلست، ملتصقة به على الأريكة، وكان العازف العجوز لايزال يردد:

ياليل، ياليل، ياليل!

كان ثمة رجل يطل كل يوم برأسه من نافذة شقته التي تقع بأعلى طابق من عمارة، ترتفع حتى السحب ويلقي نظرة متأملة على الشارع المزدحم بالسيارات والمارة. يدخن سيجارة ثم يقذف بها في الفراغ ويحدق في الطيور والطائرات التي تخترق المدينة. كان يقف على افريز النافذة ويلقي بنفسه في الهواء، ما بين شقته واسفلت الشارع، مفكراً في السعادة والحياة والأصدقاء، حيث يسقط في النهاية داخل سرداب فيرى نفسه مشدوداً إلى نافذة مغلقة، ورجاله يسوطونه ليعترف على كل ما يكرهه وما يحبه في العالم. وكانت ثمة امرأة جميلة كالحلم، تشبه هدى عبد القادر، تطلق صرخة تشبه عواء ذئب جائع في البرية.

قال المعاون قاسم حسين مع نفسه «لا يمكن أن أكون هذا الرجل. إن المسافة بين افريز النافذة والسرداب أبعد مما أطيقه!»

ولكن الرجل ظل يلقي بنفسه كل يوم من النافذة.

●

في آخر الليل إقتحم المعاون قاسم حسين زنزانة جليل محمود الذي كان يجلس على بطانية رمادية، متكئاً على الحائط. وقف إزاءه دون أن يقول شيئاً. كان يريد أن يعتذر ولكن جليل محمود ظل في مكانه، متجنباً النظر في عيني المعاون قاسم حسين اللتين كانتا مغرورقتين بالدموع. لم تكن الألفاظ مجدية، وشعر المعاون قاسم حسين أن أي كلام سيكون بلا معنى. كان يقف وحيداً، يرى الرجل يسقط من النافذة إلى الشارع ببطء شديد. وشعر أن رجليه ترتجفان فاتكأ على الجدار، مطيلاً النظر إلى جليل محمود الذي ظل في مكانه، كما لو أن الأمر كله لا يعنيه.

ثم خرج مغلقاً الباب وراءه بهدوء.

- ١٠ -

نهض المعاون قاسم حسين، مصافحاً هدى عبد القادر التي جلست على كرسي خشبي في زاوية من المكتب وسألها بتلقائية:

- «كيف أنت؟»

قالت:

- «لا بأس، كما ترى. لقد اضطررت إلى الأنتظار أكثر من ساعة، قبل أن يسمحوا لي بالدخول.»

إعتذر المعاون قاسم حسين بأدب:

- «إنني آسف، اذ لم يبلغوني بوجودك هنا الا قبل لحظات. إنني أعتذر.»

شعرت هدى أنه يبالغ بعض الشيء، فقالت:

- «مسألة بسيطة. إنني أتقن الأنتظار. أقصد أنني تعلمت ذلك. فعندما اعتقلوا جليل ظللت أنتقل من معتقل إلى آخر ولكن دون جدوى. الجواب نفسه كنت اسمعه في كل مكان أذهب اليه، لا يوجد عندنا شخص بهذا الأسم، حتى كدت أعتقد أنني فقدته إلى الأبد. ولكن شكراً لله أنك جئت وأنقذتني من مخاوفي!»

ثم أشارت هدى بيدها إلى الأرض:

- «لقد جلبت له بطانيتين ووسادة وبيجاما وملابس داخلية وسيجاير، مع خمسة دنانير.»

اعترض المعاون قاسم حسين:

- «ماذا يفعل بالنقود؟»

قالت هدى بلطف:

- «لا بأس، قد يحتاجها!»

-: «أنا موجود ياأم نادية، وهو أعز من أخي الي!»

قالت هدى:

ـ «شكراً جزيلاً!»

وقرع المعاون قاسم حسين الجرس فدخل الشرطي الحارس، رافعاً يده بالتحية:

ـ «نعم سيدي.»

وفيما كان الحارس يحمل السلة والبطانيات ويهم بالخروج قال المعاون قاسم حسين:

ـ «لا تنسى الشاي بعد عودتك. هيا أسرع!»

تساءلت هدى:

ـ «أهو بخير؟»

ـ: «بخير طبعاً، اطمئني!»

ـ: «ألا يمكن أن أراه؟»

ـ: «لا أعتقد ذلك. الأوامر هنا صارمة. أرجو أن تفهمي موقفي. ربما يكون ذلك ممكناً فيما بعد!»

احتجت هدى عبد القادر:

ـ «ماذا تعني؟ أتريدون إبقاءه هنا إلى الأبد؟ ما الذي فعله حتى يعامل هكذا؟»

أجاب قاسم خجلاً:

ـ «سوف يطلق سراحه بالتأكيد، ولكن ليس قبل الأنتهاء من التحقيق. إن موضوعه يتعلق بأمن الدولة وهو يرفض الأدلاء بأي شيء.»

ـ: «ما الذي تريدونه أن يقول؟ هل يعترف على الهواء؟ لو كان ينوي القيام بأي عمل لعرفت ذلك بالتأكيد!»

ـ: «إنني أصدقك. ولكن هذا لا يكفي، إذ لابد من أن يقتنع الآخرون أيضاً. لا أستبعد أن يكون بريئاً!»

قالت هدى متسائلة:

ـ «ما هي أدلتكم ضده؟ هل هناك شيء معين؟»

فكر قاسم قليلاً، كما لو أنه يريد التأكد من كلماته التي سيتفوه بها:

ـ «نخشى أن يكون متورطاً في قضية، تمس أمن البلاد!»

ضحكت هدى:

ـ «أستغرب أن تصدقوا مثل هذه الأكاذيب. فعندما اعتقلوا جليل جاء رجال الأمن وتحـروا بيتنـا، واذ لم يعثروا على أي شيء أخذوا معهم ديواناً لبدر شاكر السياب ورواية لهمنغواي. وعندما قلت لهم أن همنغواي كاتب أميركي قالوا، وماذا في ذلك؟ ربما كان مخرباً هو الآخر! أهذه هي أدلتكم ضد الناس؟»

ـ: «إنهم أناس بسطاء! من يمكن أن يعمل معنا غير هؤلاء؟ ولكن الحذر في مثل هذه الأمور ضروري.»

قالت هدى مستنكرة:

ـ «هكذا تعملون إذن!»

إبتسم المعاون قاسم حسين:

ـ «إطمئني، إطمئني، لا داعي للقلق!»

ودخل الحارس بالشاي.

●

«إن السفر إلى الكواكب الأخرى لم يعد مجرد أوهام تدور في رؤوس بعض الناس ولم يعد مجرد قصص مختلفة، يصنعها كتاب القصص العلمية. فقبل نهاية هذا العقـد من السنين سوف تطلق الولايات المتحدة الأميركية أول سفينة فضاء مأهولة بالبشر إلى القمر. وعند ذاك سوف يجد الشعراء الذين كثيراً ما تغنوا بالقمر أنفسهم في ورطة مضحكة.»

وقلب المعاون قاسم حسين صفحات الجريدة، منتقلاً إلى حقل الوفيات في الصفحة السابعة. لم يكن الحقل مكرساً في الحقيقة للوفيات فقط، فقد كانت ثمة أخبـار أخرى عن رجال ونساء، يحملن أسماء آبائهن، مخطوبين ومواليد تهديها الزوجات إلى أزواجهن. لم يكن المعاون قاسم حسين يعرف أحداً منهم ولم يكن الأمر ليهمه حتى لو ميز صديقاً بينهم. وفكر «ما أغرب الناس! يبدو أن أفراحهم وأحزانهم لا تخصهم وحدهم. كل شيء هو كل شيء ولكنه إعلان قبل أي شيء.» وأخيراً لفت انتباهه إعلان في الزاوية اليسرى من الصفحة:

مهرجان شعري

تقيم اللجنة الثقافية في كلية التربية مهرجاناً شعرياً بقاعة ساطع الحصري، يشترك فيه عدد من الشعراء الشباب، وذلك

في الساعة العاشرة والنصف من صباح هذا اليوم.
والدعوة عامة للجميع.

اللجنة الثقافية

كان المعـاون قاسم حسين قد تلقى قبـل يومين تقريراً عن هذا المهرجان الشعري الذي كان الطلبة اليساريون ينوون تنظيمه. لقد رفض عميد الكلية فكرة المنع عندما اتصل به تليفونياً وقال: «لن تسقط الدولة ببضع قصائد، يلقيها الطلبة! أرجوكم أن تبعدوا رجالكم عنهم!» ورأى المعاون قاسم حسين أن يحضر بنفسه هذا المهرجان الذي لم يكن قد حضر مثله منذ عدة سنوات وفكر ساخراً «لا بأس من أن يعتاد شرطي مثلي حضور مجالس الشعر.»

في طريقه إلى كلية التربية عرج على هدى عبد القادر التي استقبلته بابتسامة عذبة أمام الغرفة التي تعمل فيها قائلة:

ـ «شكراً لله، إنك جئت في الوقت المناسب، فقد كنت على وشك مغادرة الدائرة بعد أن حصلت على إجازة لمدة أسبوع.»

ارتبك المعاون قاسم حسين:

ـ «إنني هنا بسبب جليل!»

فزعت هدى:

ـ «ماذا به؟»

رد قاسم برقة:

ـ «لا شيء. ربما أطلق سراحه قريباً!»

قالت هدى فرحة:

ـ «هيا لنغادر هذا المكان، حيث نستطيع التحدث بحرية.»

كانا لا يزالان واقفين في الممر الطويل. وخطت هدى إلى الأمام:

ـ «إن زملائي في الدائرة لا يعرفون شيئاً عن اعتقال جليل، ما عدا زميلتي التي تشاركني غرفتي في الدائرة. لا أريدهم أن يعرفوا ذلك، فقد يتخذونه ذريعة ضدي. إنهم ينهشون من يرونه ضعيفاً. أنت تعرف ذلك!»

كانا قد هبطا السلم وأصبحا في الشارع. بادر المعاون قاسم حسين إلى القول، وهو يقف أمام سيارته الفولكس فاكن:

ـ «إنني ذاهب إلى كلية التربية. أستطيع أن أوصلك إلى باب المعظم إذا كنت ذاهبة بنفس الأتجاه!»

وصعدت هدى إلى السيارة التي انحرفت باتجاه شارع الجمهورية. وقال المعاون قاسم حسين، محاولاً إخفاء إرتباكه:

- «إنني مدعو لحضور مهرجان شعري، يقيمه الطلبة في كلية التربية.»

فقالت هدى ساخرة:

- «لابد أن الطلبة هم الذين دعوك!»

-: «كلا، لقد دعاني العميد.»

ثم التفت اليها:

- «ما رأيك أن تحضري المهرجان معي؟ سوف يكون هناك أمامي ما يكفي من الوقت لأحدثك عن جليل!»

ضحكت هدى:

- «سوف تطلب مني بعد قليل أن أعمل معك في الأمن!»

إنزعج المعاون قاسم قليلاً:

- «أنت لا تثقين بي. يجب أن تعرفي أنك زوجة صديقي.»

-: «لو لم أكن واثقة منك لما صعدت معك. إنني أمزح.»

-: «شكراً!»

قالت هدى:

- «لم تحدثني عن جليل.»

-: «لقد تحدثت أمس مع المدير حوله وطلبت إطلاق سراحه، فوعدني أنه سيفكر في الأمر.»

سألت هدى:

- «هل تعتقد أنه سيوافق؟»

-: «أرجو ذلك.»

ضغط المعاون قاسم حسين على فرامل سيارته وسأل هدى:

- «لقد بلغنا نهاية شارع الجمهورية. هل تنزلين؟»

قالت هدى بدون تردد (وكانت قد فكرت في ذلك):

- «كلا! لقد غيرت رأيي. سأحضر معك المهرجان الشعري، اذا كانت دعوتك لاتزال قائمة!»

ابتسم المعاون قاسم حسين:

- «شكراً ياهدى!»

شعر وهو يلفظ إسم هدى متعمداً أنه يهدم بذلك الجدار الذي يفصله عن صديقه القديم.

●

حقاً... لا يمكن للدولة أن تسقط ببضع قصائد، يلقيها الطلبة، ولكنها سوف تصاب بالعطب مع الزمن. كان الشيوعيون قد نهضوا من جديد، بعد أن كان الكثيرون يعتقدون أنهم قد انتهوا تماماً. لم يكن المهرجان مكرساً لهم. كان ثمة طلاب آخرون، يحتشدون في القاعة: مستقلون وقوميون واخوان مسلمون. وفكر المعاون قاسم حسين «في رأس كل واحد منهم وهم كبير!» وكان يأمل أن يختلفوا فيما بينهم، وبخاصة أنه كان قد دس في زوايا مختلفة من القاعة مخبريه الذين سيرفعون شعاراته هو أيضاً.

كانت القاعة محتشدة بالطلبة وببعض الغرباء الذين كانوا قد جاءوا من الخارج. لم يكن المهرجان قد بدأ بعد. ورأى العميد يجلس مع بعض الأساتذة في الصف الأول، الا أنه تجاهله وجلس في بداية الصف الثاني إلى اليسار، في الوسط مع هدى التي ظلت أنظارها شاخصة إلى المايكروفون المثبت فوق المنصة على المسرح. ثم بدأ المهرجان. نهض الأستاذ المشرف على اللجنة الثقافية، وهو دائماً أستاذ من قسم اللغة العربية، وألقى كلمة طنانة مليئة بالجمل الفارغة عن الشعر الذي يكتبه الشبان هذه الأيام؛ أفكار مستوردة، لابد من العودة إلى التراث. عندما عاد إلى مقعده صافحه العميد وأقرب الجالسين اليه:

ـ «هكذا يكتب الشعر والا فلا!»

تصفيق باهت. وكان يشعر بالخجل والكبرياء في آن.

وبدأ المايكروفون يقدم القصائد. واذ كان أحد الطلبة اليساريين يلقي قصيدة ثورية أطلق شخص ما من المقاعد الخلفية عفطة قوية رتيبة، والتفتت الرؤوس إلى الوراء:

ـ «أيها الحقير!»

ـ: «أطردوا عملاء الشرطة!»

ـ: «كلب!»

واشتد الصخب عند نهاية القاعة. ثم انفجرت بضعة أصوات من الزاوية الوسطى القريبة من الباب الجامعي في هتاف موحد:

«فلسطين عربية
فلتسقط الشيوعية!»

ولكن هتافاً جماعياً آخر، شمل القاعة كلها، طاغياً على الهتاف الواهن الذي اختنق تماماً:

«فلسطين عربية
فلتسقط الصهيونية!»

ثم هدأت القاعة وسمع المعاون قاسم حسين وراءه فتاة تقول:

- «إنتهت المهزلة، لقد قذفوا بهم إلى خارج القاعة!»

واستقبل الجمهور شاعره هذه المرة بتصفيق حماسي متواصل. كانوا يؤكدون حضورهم في مواجهة الليل. وتواصلت القصائد، تطرق الرؤوس، مصحوبة بانقطاعات تصفيق حاد.

همس المعاون قاسم حسين في إذن هدى:

- «هل تفهمين هذا الشعر الغامض؟ لا أعتقد أن أحداً يفهمه ولكنهم مع ذلك يصفقون!»

ضحكت هدى:

- «لا أكاد أصدق ما أسمعه. أنت تتكلم مثل الشيوعيين. الشيوعيون يطالبون بالوضوح أيضاً!»

قال المعاون قاسم حسين ساخراً:

- «لقد تعلمت منهم الكثير خلال عملي. لا أنكر ذلك.»

●

أمضى قاسم حسين فترة الظهيرة في مشتمله الصغير المكون من غرفتين، مفكراً في هدى عبد القادر التي كانت تمنحه صداقتها بيسر شديد. أتراها كانت تدافع بذلك عن زوجها الذي كان يقبع وحيداً داخل زنزانته المنفردة؟ ربما، ومع ذلك فان عينيها الواسعتين كانتا تبوحان بأكثر من الصداقة: الشهوة. وقال في نفسه «صحيح أنني كنت المبادر إلى دعوتها لحضور المهرجان الا أن جرأتها تثير الدهشة. أتراها من النساء اللواتي لا يقدرن على غياب أزواجهن؟ لا أدري! لا أدري!»

نهض من مكانه وفتح النافذة المطلة على الشارع. ثم عاد والتقط مجلة

(السينما والعجائب) من فوق المنضدة وجلس يقرأ مقابلة، أجرتها المجلة مع المطربة صباح عن أزواجها السابقين.

●

عبر المعاون قاسم حسين أحد المقاهي المدفونة بين الأشجار في أبو نواس. وكان ثمة نهر دجلة الذي انسحب بعيداً، يحتشد على ضفته الرملية فتيان صغار، يجازفون بين الفينة والأخرى في السباحة مع التيار فيما كان اللوطيون القادمون من الجراديغ القريبة المقامة على ضفة النهر يشجعونهم بكلمات تبدو في ظاهرها بريئة ولكنها تتضمن الكثير من البذاءة.

وسار المعاون قاسم حسين باتجاه النهر، ثم اجتاز صفوف السابحين الصغار فيما كانت إذاعة بغداد تبث أغنية ريفية شائعة من جهاز ملقى فوق الرمل. وظل يسير مفكراً في هدى التي كانت قد تركت ظلها على حياته بطريقة ما، طريقة غامضة على أية حال، حياته التي لم يكن يعرف ما يفعل بها، لولا أنه كان يجلس وراء مكتبه كل يوم، في الليل والنهار، ليواجه بصرامة وخشونة ضحاياه المرتجفين. وفكر «لعلهم يجهلون أنني رجل ميت، بعض الشيء على الأقل.» وضحك من فكرة أن يكون ميتاً «أليس مضحكاً أن يموت رجل مثلي؟» ونظر إلى يده «إنها حية، تتحرك مثل سمكة.» وسحب مسدسه من وسطه ورماه فوق العشب، ثم استلقى على ظهره، محدقاً في السماء الزرقاء الصافية فيما كان ثلاثة سكارى قادمين من بعيد يغنون للريح.

- ١١ -

«كل شيء ينبغي أن ينظم بدقة. اشرفوا على العمل بأنفسكم!»

كان هذا آخر أمر يصدره المدير العام وهو يتراجع ليجلس على كرسيه وراء مكتبه الذي لم يكن فخماً الا من الناحية المظهرية. فقد كانت تنقصه قبل كل شيء الأبهة التي تليق بمدير للأمن، يسيطر على كل شيء في البلد، ووراءه على الجدار عالياً، كانت ثمة صورة عسكرية كبيرة لرئيس الجمهورية. وبالأضافة إلى الأرائك الرمادية التي كانت تشغل معظم الغرفة المفرطة في الطول، كان ثمة جهاز راديو ضخم وجهاز تلفزيون صالة من نوع فيليبس. وفي الحقيقة لم يكن هذا كل شيء، فقد كان هناك الخوف أيضاً من هذه الغرفة ومن الرجل الذي كان قد جاوز الخمسين من عمره وظل محتفظاً بملامح كثيرة، تنبىء عن شبابه الذاهب.

وفكر المعاون قاسم حسين، وهو يتوسط زملاءه الآخرين الذين كانوا يغادرون الغرفة بانتظام «ترى ما الذي يبغيه الوزير من هذه الزيارة؟ زيارة تفتيشية، كما يقول المدير العام. ربما!» وسمع المعاون يوسف عبد العزيز يقول له بعد أن أصبحا خارج الغرفة:

ـ «هناك امرأة خابرتك بالتليفون، ولكنك لم تكن موجوداً. فقلت لها أن تتصل بك فيما بعد.»

إرتبك المعاون قاسم حسين قليلاً:

ـ «هل ذكرت إسمها؟»

إبتسم يوسف وألقى عليه نظرة ذات معنى، حاول المعاون قاسم حسين أن يتجنبها، متعمداً النظر إلى الأمام:

ـ«كلا بالطبع! قالت أنها قريبتك. لم أكن أعرف أن لك قريبات في بغداد!»

أنهى المعاون قاسم الموقف قائلاً:

ـ «إنها من قريباتي بالفعل.»

وأسرع باتجاه غرفته.

أحـدث نبأ زيارة وزير الداخلية للدائرة **حركة غير اعتيادية بين** جميع العاملين سواء كانـوا مدراء شعب أو معـاونين أو مفوضين أو حراساً وشرطة. وامتدت هذه الحركة إلى المعتقلين أنفسهم. فقد دخل العريف سعدون وهو رجل داكن البشرة، ذو حجم ضخم، يكـاد يكـون غير معقـول، إلى الـداخل ووقف أمام الغرفتين المتقابلتين اللتين كانتا تقعان في مدخل الموقف، قائلاً:

ـ «لا أريد أن أسمع أي صوت! الوزير في الدائرة، أبقوا في أماكنكم حتى تنتهي الزيارة.»

ثم التفت إلى الحارسين اللذين دخلا معه:

ـ «لا تفتحوا أبواب الغرفة مهما حدث!»

مازحه الدكتور أكرم عادل الذي كان يتكىء بيده على الباب المشبكة من الأعلى:

ـ «حتى اذا مات أحد منا!»

ـ: «لا تخف يادكتور! الموت يتجنب التورط معكم.»

ـ: «ماذا يفعل الوزير هنا؟ إطلاق سراح... إنشاء الله!»

قال العريف:

ـ «ماذا تفعل باطلاق سراحك؟ إبق في مكانك أفضل!»

ـ: «طبعاً، ماذا يهمك؟ كل يوم تخرج إلى الشارع وتتونس!»

نظر العريف اليه ملياً ثم قال:

ـ «هل تقبل أن نتبادل مواقعنا؟ أكون دكتوراً سجيناً وتكون أنت شرطياً ظليقاً. بشرفي أقبل. ما الفائدة؟ كل راتبي هو ثمانية عشـر ديناراً. هل تصدق؟»

ثم قال آمراً، بجدية:

ـ «كل واحد يأخذ مكانه.»

واخيراً إتجـه إلى الغـرفـة الـداخلية الكبيرة الـواقعة إلى اليسار، قريباً من المـراحيض، حيث يوجـد خليط آخـر من المـوقـوفين: حزبيون فقراء ومهربون وايرانيون ومتمردون أكراد:

ـ «الوزير في الدائرة. إخرسوا تماماً!»

واذا كان العـريف سعـدون قد تولى إسكات الموقوفين بعد إغلاق أبواب غرفهم فان آخرين تولوا تنظيف المدخل والممرات وتنظيم المكاتب، مضفين على المكـان أكبـر قدر ممكن من النظام بعد **أن أبعدوا النساء اللواتي** يرتدين العباءة

ويتكتلن كل يوم، بدون سبب معقول على مقربة من البوابة الخارجية، مطالبات عبثاً باطلاق سراح أقاربهن أو مقابلتهم أو ايصال الزنابيل المليئة بالطعام والسيجاير والملابس اليهم.

أما المعاون قاسم حسين فقد كان يجلس في غرفته، منتظراً أن تخابره هدى مرة أخرى. ولكنه كان يشعر بقلق خفي في الوقت ذاته من هذه الزيارة المفاجئة للوزير. فرغم أن المدير العام لم يلمح إلى شيء معين بالذات، وربما لم يكن يعرف الهدف من الزيارة، الا أن المعاون قاسم كان يشعر بصورة خفية أن هذه الزيارة ستعني الكثير بالنسبة له. وبصورة ما كان محقاً في مخاوفه، إذ لم يلق الوزير حتى نظرة واحدة على جهودهم التجميلية، فقد دخل إلى غرفة المدير العام ولم يخرج أبداً. وقرع جرس التليفون الداخلي في غرفة المعاون قاسم حسين. إنه المدير يتحدث:

ـ «تعال إلى غرفتي يامعاون قاسم!»

فأسرع قاسم حسين، متعثراً بخطواته، وكان يعرف أن الوزير سيسأله عن نتائج تحقيقاته، إذ ما من شيء آخر يمكن أن يتحدث به معه ويوليه هذا الشرف الرفيع. قرع الباب ودخل. كان الوزير يحدق فيه دون أن يرد على تحيته. وشعر برغبة عميقة في البكاء، فقد كان مأخوذاً بهيبة الموقف. ولكنه تماسك وظل واقفاً.

قال المدير العام بلطف:

ـ «السيد الوزير يستفسر عن نتائج تحقيقاتك، هل عثرت على أي خيط، يؤدي إلى المخربين؟»

رد قاسم:

ـ «إننا نحاول ولكننا لم نتوصل حتى الآن إلى أي أثر مؤكد!»

ـ: «والصحافي الموقوف... أليس هو واحداً من الشبكة؟»

ـ: «لا أعتقد أن له علاقة بهذا الموضوع، وهو ينكر أن تكون له أي صلة بالمخربين. أعتقد أنه يقول الحقيقة.»

وشعر بصوته يجف في حلقه، حدجه الوزير بنظرة إزدراء وفتح فمه ليقول:

ـ «ينكر! ماذا ينكر؟ القضية تتعلق بأمن البلاد كلها وأنت تقول أنه ينكر!»

تجرأ قاسم:

ـ «لا نملك أي دليل ضده.»

فرد الوزير بحزم:

ـ «واجبك هو اكتشاف الدليل.»

ثم التفت إلى المدير العام:

ـ «لم أكن أعرف أن رجالك يفكرون بهذه الطريقة، بهذه الرقة. لماذا كل هذا التهاون؟»

قال المعاون قاسم حسين، مدافعاً عن نفسه:

ـ «لقد مارسنا معه كل أنواع التعذيب...»

قاطعه الوزير قائلاً:

ـ «لا يوجد إنسان لا يعترف. كل ما في الأمر هو أن درجة التعذيب تختلف!»

ـ: «نعم سيدي.»

واستغرب المعاون قاسم حسين أن يكون الوزير على مثل هذه المعرفة بعمله الخاص وفكر «من أين له كل هذا الفهم لعملنا الخاص؟» ورغم حراجة الموقف فانه شعر بشيء من الراحة. فها هو يقف أمام رجل، ليس غريباً عنه. وأشار الوزير بيده إلى المعاون قاسم حسين قائلاً:

ـ «هيا اجلس، لماذا أنت واقف؟»

تردد المعاون قاسم حسين، الا أن المدير العام أمره برفق:

ـ «هيا اجلس يامعاون قاسم!»

فجلس ممتلئاً بمشاعر أخوية فياضة تجاه رؤسائه. وكانت دموعه توشك أن تبلل عينيه:

ـ «لقد بذلت كل ما في وسعي لأجعله يعترف.»

قال الوزير:

ـ «ربما كنت تعرف ياسيد قاسم أنني رجل ديمقراطي، بل ويساري أيضاً. فلو كنت في انكلترة لما انتخبت غير حزب العمال. ولكن الديمقراطية لا يمكن أن تنجح في البلدان المتخلفة. ولذلك لابد من الشدة والحزم. عندنا معلومات أكيدة، تشير إلى أنهم يستعدون الآن للقيام بأعمال تخريب جديدة. وأنت تعرف ما يمكن أن يعنيه هذا للبلد. أحياناً يكون مستقبلنا جميعاً متعلقاً بحركة واحدة، يقدم عليها هذا الرجل أو ذاك. قد تبدو تافهة ولكنها في الحقيقة تكون قاتلة.»

أومأ المدير العام برأسه وقال:

ـ «هذا صحيح!»

كان الوزير يركز نظراته في عيني المعاون قاسم حسين:

ـ «ربما كان الصحافي الموجود عندكم بريئاً. لا أستطيع أن أقول العكس. ولكننا سوف لا نخسر شيئاً إذا ما ضغطنا عليه. فاذا كان متورطاً فسوف ينهار في النهاية واذا كان بريئاً فسوف لن يقول شيئاً بالطبع ولكنه قد يقبل بالتعاون معنا. أنت تعرف عملك... أليس كذلك؟ إستعمل دماغك في هذه القضية. أريد نتيجة سريعة. والآن يمكنك أن تذهب. إننا نعتمد عليك!»

ونهض المعاون قاسم حسين:

ـ «شكراً سيدي.»

ثم غادر الغرفة بسرعة.

- ١٢ -

قرع جرس التلفون. كانت هدى على الطرف الآخر:

ـ «حمداً لله! هذا أنت، اتصلت بك صباحاً، أين كنت؟»

كان صوتها مشحوناً بعذوبة، جعلته يرتجف من البهجة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها صوتها في التليفون. كان قد تردد في البداية فيما اذا كان ينبغي عليه تزويدها برقم تليفونه أم لا! وها هي تتصل به في اليوم التالي مباشرة، فقال لها:

ـ «تأخرت قليلاً في البيت. كيف أنتِ؟»

فأجابت باللهجة المصرية التي لابد أنها تعلمتها من الأفلام المصرية التي تعرض في التلفزيون:

ـ «كويسة!»

شعر المعاون قاسم حسين بالدم يغلي في عروقه، فقد كان هذا الجواب يتضمن خفة ما، بيد أنه تماسك وقال:

ـ «إنك مرحة اليوم!»

فأجابت هدى ضاحكة:

ـ «أريد أن أراك. هل عندك وقت الآن؟»

ـ: «لابد أن هناك أمراً مهماً.»

ـ: «لا أدري، ولكنني أريد أن أحدثك عنه.»

ـ: «حسناً، يمكن أن أغادر الدائرة بعد حوالي الساعة. أين تكونين؟»

ـ: «سأنتظرك أمام سينما النصر. إنه أقرب مكان اليك.»

ـ: «حسناً في الساعة الثانية عشرة اذن.»

ـ: «مع السلامة.»

ـ «مع السلامة.»

وكانت ثمة عواصف، تهب داخل قلبه القلق.

- : «هيا اصعدي!»

وفتح لها باب سيارة الفولكس فاكن، وهو على مقعده، فجلست إلى جانبه. قال المعاون قاسم حسين:

- «والآن... إلى أين؟»

أجابت هدى:

- «لنذهب إلى الـ (ثري سيفن). انه مكان مناسب وقريب.»

قال قاسم مندهشاً:

- : «ما هذا المكان؟»

- : «إنه مقهى ومطعم عند الجندي المجهول. نستطيع أن نتكلم فيه بهدوء وحرية.»

قال المعاون قاسم حسين بخبث:

- «يبدو أنك تعرفينه جيداً!»

ردت هدى باستحياء:

- «كنا نذهب اليه أحياناً، أنا وجليل.»

ودارت السيارة إلى اليسار لتعبر الفتحة باتجاه ساحة الجندي المجهول. لم يكن قاسم واثقاً من شيء. ولم يكن يعرف بالضبط ما تريده هدى، وكانت عواطفه وأفكاره تعاني من مد وجزر بين لحظة وأخرى. ولم تكن خبرته مع النساء تتعدى حدود علاقاته مع العاهرات من أمثال مديحة وسميرة. كان يخشى الفشل مع هدى التي لم يكن واثقاً من أي شيء معها، رغم ما كان يعتبره تشجيعاً له على مواصلة السير حتى آخر الشوط. قالت هدى:

- «هنا.»

توقفت السيارة أمام المقهى وهبطت هدى أولاً، ثم تبعها المعاون قاسم حسين بعد أن أغلق أبواب السيارة. كان يفكر «ترى ما الذي تريد أن تقوله؟ أتراها تقوم هي الأخرى بدور ما في هذه اللعبة؟ لماذا لم أشك فيها أبداً؟ إنها أشطن مما تبدو عليه.» ودفع باب المقهى فقرع جرس موسيقي خفيف. وقادته هدى إلى إحدى الزوايا:

- «لنجلس هنا!»

قال المعاون قاسم وهو يمعن النظر في المكان:

- «إنه مكان فخم حقاً!»

في نهاية المقهى كان صندوق الموسيقى يذيع أغنية فرنسية لأديث بياف. وفي الزوايا والمقدمة القريبة من الواجهة الزجاجية كان يتناثر بعض الزبائن الهادئين مع ثلاث أو أربع نساء أخريات. كان الجو غريباً على المعاون قاسم حسين الذي لم يكن معتاداً على ارتياد مثل هذه الأماكن. ولكي يداري ارتباكه أخرج سيجارة وأشعلها ثم راح يحدق في الجدران التي كانت تضفي طابعاً فولكلورياً على المكان.

وانحنى النادل باحترام، متمتماً بكلمات لم يسمعها المعاون قاسم حسين. قالت هدى:

ـ «قهوة تركية رجاءاً!»

والتفت النادل إلى المعاون الذي قال له بهدوء:

ـ «قهوة أيضاً.»

كانت أغنية أديث بياف قد انتهت وبـدأت أغنية أخـرى لدوريس داي. أخرجت هدى علبة سيجاير من حقيبتها التي كانت قد وضعتها على المقعد الجانبي وأشعلت هي الأخرى سيجارة، راحت تنفث دخانها بصمت. قال المعاون قاسم حسين:

ـ «لم أكن أعرف أنك تدخنين!»

هزت هدى رأسها قائلة:

ـ «ليس كثيراً. إنني أدخن أحياناً.»

وضع النادل القهوة على المائدة. كان المعاون يحدق في عيني هدى:

ـ «والآن... ما هي أخبارك؟»

ـ: «ما من شيء مهم سوى أن رجالك أخذوا يحومون حول منزلنا. لا أدري ما الـذي يبحثـون عنه عندي! فقد سألوا صاحب الدكان القريب منا عن الذين يترددون علينا. هل وضعتموني أنا الأخرى تحت المراقبة؟»

كان المعاون قاسم حسين قد بوغت ولكنه تماسك وقال:

ـ «أبداً! هذا غير صحيح. أنا الذي أحقق في القضية، ولكن ربما حدث ذلك قبل أن أتولى التحقيق.»

إبتسمت هدى وقالت:

ـ «إذن لم تضع جواسيس علي؟»

قال المعاون قاسم، متعمداً الأنفعال:

ـ «يؤسفني أنك لا تثقين في ياهدى!»

قالت هدى:

ـ «إنني أثق فيك. إنتهى الموضوع. هيا اشرب قهوتك.»

وأخذت رشفة من قهوتها. كانت الأغنية قد انتهت. مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت قطعة معدنية من محفظة نقودها، ثم نهضت واتجهت نحو صندوق الموسيقى، حيث طلبت بعض الأغاني وعادت إلى مكانها فيما كان صوت فرانك سيناترا يملأ الصالة، مغنياً أحزان عشاق غرباء يجوبون الليل.

قال المعاون وهو يتأمل هدى التي كانت ممتلئة بالأغنية:

ـ «لم تسأليني حتى الآن عن جليل!»

مطت هدى شفتيها في حركة قبيحة وقالت:

ـ «لقد تعبت ياقاسم. ماذا يمكن أن أفعل؟ إنني في الحقيقة وحيدة.»

ثم أدارت وجهها إلى اليسار، كما لو أنها تخدق في الزبائن، مضيفة:

ـ «وخائبة أيضاً!»

سحبت سيجارة من علبتها ووضعتها في فمها المدور الذي انزاح عن بعض أجزائه الطلاء البنفسجي وراحت تدخن بعصبية:

ـ «لا أحد يفهمني. أهلي يلومونني. هل تعتقد أنهم سيفهمون موقفي؟»

ـ: «ما هو موقفك؟»

قالت هدى بسرعة، كما لو أنها كانت تنتظر السؤال:

ـ «لقد اخترته دون رضى أهلي. رفضوا أن أتزوج رجلاً، أمضى ثلاثة أعوام في السجن. ولكنني أصررت، إذ كنت أحبه.»

تساءل المعاون قاسم حسين بخبث:

ـ «كنتِ تحبينه؟»

قالت هدى، متمالكة نفسها:

ـ «لنتحدث في موضوع آخر!»

قال المعاون قاسم، محاولاً إستغلال الفرصة:

ـ «ربما كان قد ورط نفسه من جديد!»

هزت هدى رأسها:

ـ «لا علاقة له بكل هذا. إنني أعرفه.»

إلتقط المعاون نبرة البرودة في صوتها وهي تتحدث عنه فقال:

ـ «لا تكوني واثقة كثيراً، فربما أخفى عنك الأمر.»

قالت هدى بكبرياء:

ـ «لا أصدق ذلك!»

وسقط بينهما الصمت مرة أخرى. وكان دين مارتن يغني عن رجل، يعزف على الماندولين. وفكرت هدى «ربما كان يغني حبي» ثم أسبلت جفنيها، مصغية إلى موجة قلقة صخابة، تعبرها دون أن تترك أثراً فيها. قالت:

ـ «لقد تأخرت. ينبغي أن أذهب!»

قال المعاون قاسم حسين:

ـ «سأرجع أنا الآخر إلى الدائرة.»

ثم نادى النادل ودفع الحساب، واضعاً القائمة في جيبه، فيما كانت هدى تغادر المقهى.

قالت هدى وهي تحتل المقعد الأمامي إلى جانبه:

ـ «أعرف أنني سببت لك الكثير من التعب. أوصلني إلى ساحة الأندلس فقط.»

بيد أن المعاون قاسم الذي كان منفعلاً بتأثير الجلسة في المقهى مد يده وأمسك بكفها الصغيرة في حركة حذرة تعني في مظهرها الخارجي أنه معها في حين أنها كانت تعني بداية لتفاهم جديد بينهما. وكانت هدى قد أدارت وجهها نحو النافذة المفتوحة للسيارة فيما ظلت كفها ترتعش بين أصابعه، دون أن تحاول سحبها. وكان قلبها يمتلىء بالضباب.

- ١٣ -

كانت غرفة المعاون قاسم تقع إلى الجهة اليمنى من البناية الكبيرة التي يرفرف فوقها علم الدولة الرسمي. إنها الغرفة الثانية إلى الجهة اليسرى من الرواق المفتوح المؤدي إلى الموقف الذي كان يحتشد فيه الموقوفون، من جهة، ومكاتب المفوضين والكتبة من جهة أخرى. وعلى الرغم من النوافذ المغلقة كانت الشمس تنير الغرفة، مشكلة مستطيلات ضوئية صغيرة داخل مستطيل كبير الحجم على الجدار، ومثل كل الغرف الأخرى التي كانت غالباً ما تحدد فيها مصائر الناس الذين يرغمون على دخولها، فانها لم تكن سوى غرفة تافهة، ذات مظهر مخرب، لا تليق بالقوة التي يمتلكها الرجل الذي يمضي معظم ساعات يومه فيها. إنه مظهر يكاد يكون عاماً في كل الغرف التي يجلس فيها شرطيون، يمتلكون القوة. ومن وراء زجاج النافذة المغلقة التي كانت العناكب تتدلى عند حافاتها العلوية، كانت تبدو رؤوس ثلاث نخلات، تحط عليها العصافير أحياناً، ولكنها ما تلبث أن تحلق مرة أخرى في الجو.

لم يكن المعاون قاسم حسين قد انتبه أبداً فيما مضى إلى هذا المظهر الوضيع لغرفته؛ كانت هناك أمام النافذة طاولة حديدية رمادية من النوع الرخيص الذي يباع في المزادات، وعلى طرفها الشمالي حافظة أوراق بلاستيكية مغطاة بالأضابير. وعلى الطرف الآخر جهازا هاتف، أحدهما أسود اللون، للأتصالات المباشرة والثاني، وهو ذو لون أبيض، يرتبط بالبدالة العامة. وكانت ثمة كراسٍ خشبية عتيقة، متناثرة على جانبي الغرفة، ولا شيء آخر، الا اذا اعتبرنا صورة رئيس الجمهورية المعلقة بأهمال فوق النافذة، إزاء الباب جزءاً من الأثاث. فكر المعاون قاسم حسين أن يرفع مذكرة إلى المدير العام، يرجوه فيها الموافقة على شراء أثاث جديدة، تليق برجل في مثل مركزه، غير أنه طرد الفكرة من رأسه «ما الذي سيقوله الآخرون؟» كان المعاون يفكر في الحقيقة في أمور أكثر أهمية من شراء أثاث لغرفته. إنه منذ أكثر من ساعة يستعيد هذه البهجة الغامرة التي جاءته دون انتظار،

البهجة التي كانت تختلط بذكرى صديق، يقبع مهموماً داخل زنزانته، أو يفكر في امرأته التي خلفها وراءه. ان ما يفكر فيه جليل محمود ليس سوى جزء من هذه الخديعة التي تعم الجميع. فهو يؤمن أن العالم سيكون أفضل بدوننا ولكنه مخطىء، فالعالم سيظل على ما هو عليه بدوننا أو بدونه. الخديعة... الخديعة!

لربما كان يحب هدى، فهي زوجته على أي حال. ولكن هدى المفرغة من الأوهام نزعته عنها كما تنزع ثوباً بالياً، لم يعد يليق بها. وعلى كل حال، هل كان عليه أن يطردها بدعوى صداقة ميتة؟ وهل كان عليه أن يخون نفسه من أجل وهم شبيه بوهم جليل محمود المخان؟ أبداً، أبداً، أبداً! وماذا يمكن أن يحدث لو أنه كان قد رفض هدى؟ لا شيء سوى أن هدى كانت ستعثر بالتأكيد على رجل آخر لتخون معه الرجل الذي يحلم بتغيير العالم. قد يظل كل شيء على ما كان عليه في نظر جليل، ولكنه يكون في الحقيقة قد تغير تماماً. لقد انتهى الماضي الذي كان يربطه بهذا الصديق المضحك. وابتسم المعاون قاسم «هنا يكمن ضعفه الحقيقي الذي سأجعله يتعرف عليه.» ومع ذلك لم يكن سهلاً على المعاون قاسم حسين أن يقف أمام جليل محمود ويلعب معه الدور الذي اعتاد أن يلعبه مع الآخرين، بنفس الأتقان والبراعة، فقد كان ثمة ما هو خارج كل شيء: الحب والصداقة والخيانة، وذلك الشعور الذي ينتاب المرء أحياناً بأن تأريخاً ما يفلت منه وانه لن يسترجع أبداً.

ورغم أن المعاون قاسم حسين كان منذ دخوله الغرفة يتصفح الأضابير المتراكمة أمامه، ماراً بعينيه على التقارير المكتوبة بخط رديء، والتي كان عليه أن يبدي رأيه فيها فانه لم يكن قد فهم شيئاً منها، واستغرب كيف أنه قرأ كل تلك الأوراق، كما لو أنه لم يقرأ جملة واحدة منها. وقرر أن يطرد من رأسه هذه الأفكار التي تشغله. فثمة عمل ينبغي أن ينجز، ولم يكن هو الرجل الذي يهمل عمله. بيد أنه ما كاد يبدأ بقراءة أوراقه من جديد حتى دخل عليه المعاون يوسف مما جعله ينصرف من جديد عن لغة الأضابير الجافة والتقارير السرية. قال المعاون يوسف الذي كان قد نزع نظاراته مما جعل شكله يتغير، بسبب البقعة الشاحبة التي تركتها النظارات حول عينيه وأعلى أنفه:

ـ «هل تعتقد أن الحرب ستنشب مع اسرائيل؟»

هز المعاون قاسم حسين كتفيه وكان يعني، لا أدري، وربما لست واثقاً.

غير أن المعاون يوسف الذي ألقى بنفسه على أحد الكراسي العتيقة واصل بحماسة:

ـ «كل العالم يتحدث عن الحرب الآن. إن أموراً خطيرة توشك على الوقوع. هل تعتقد أن اسرائيل ستسكت على قيام عبد الناصر بغلق مضايق تيران؟ أبداً! هذا يعني الحرب. واذا ما حدثت الحرب فان الجيش المصري سوف يحتل اسرائيل خلال يومين. إنه جيش قوي جداً. ولكن ألا تعتقد أن الحرب قد تؤثر علينا أيضاً؟»

وسأل قاسم مستغرباً:

ـ «ماذا تعني؟»

ـ: «أعني أننا قد نواجه تطورات جديدة غير متوقعة!»

وضحك المعاون قاسم حسين:

ـ «أنت تبيع السمك في الشط! أين هي الحرب؟ أنت لا تعرف عبد الناصر. إنه يعرف كيف يخطب، ولا شيء آخر.»

ثم سأل بعد قليل:

ـ «قل لي.. هل صرف المحاسب مخصصاتنا؟ إنني موشك على الأفلاس!»

فجاءت الأجابة الضاحكة:

ـ «أين كنت يارجل؟ لقد استلمناها منذ الصباح الباكر. سأبلغ المحاسب أن يمر عليك.»

«في هذا البلد ما من شيء مؤكد. الجميع خائفون، من طلبة المدارس إلى رجال الشرطة. كلهم يتوقعون حدوث شيء ما، والمعاون يوسف واحد من هؤلاء. فقد يؤدي انتصار عبد الناصر على اسرائيل إلى انتصاره علينا أيضاً. وعند ذاك سيكون المعاون يوسف أول الداخلين في اللعبة، وربما تحول إلى مدير خلال أيام قلائل، ولكنه سوف لن يكون أكثر من مهرج رغم كل شيء، مجرد واحد من الذين ترفعهم المراحل ثم سرعان ما يتخلى عنهم الزمن فيسقطون، متباكين على أيامهم الذهبية.»

دخل المحاسب، ذو الأنف المنقاري، الذي كان ينتهز كل فرصة ممكنة للتقرب من المعاون قاسم حسين:

ـ «معذرة، لم أكن أعرف أنك قد وصلت. الآن فقط أخبرني المعاون يوسف أنك موجود في غرفتك.»

رد المعاون قاسم حسين الذي تذكر أن المحاسب كان قد توسط لديه منذ مدة لتعيين شقيقه المتخرج من كلية الهندسة في شركة الآي. بي. سي:

ـ «شكراً، شكراً.»

قال المحاسب الذي وضع الأوراق النقدية أمامه على الطاولة، بلهجة ودية:

ـ «أرجو ألا تنسى قضية عادل! لقد أتعبني بالحاحه. أنت تعرف موقف الأخوة الكبار تجاه الصغار.»

فرد المعاون قاسم حسين وهو يوقع على قائمة الصرف:

ـ «لماذا الآي. بي. سي بالذات؟ ألا توجد دوائر أخرى؟»

ـ: «المهندس في شركة إنكليزية ملك حقيقي ياسيدي. فاذا ما زودته بكتاب من الدائرة، تطلب فيه تعيينه فان قبوله سيكون مؤكداً. وسوف لن ننسى لك هذا الفضل!»

وهمهم قاسم حسين:

ـ «إننا نعين أحياناً رجالنا في المواقع التي نريدها. وشقيقك ليس من هؤلاء. ماذا سأقول للمدير العام إذا سألني عنه؟»

توسل المحاسب:

ـ «قل له إنه شقيقي، وانك تعتمد عليه. ولسوف يفهم!»

إبتسم المعاون قاسم حسين:

ـ «دع الأمر لي، وسأفكر في طريقة ما.»

ـ: «شكراً. لن أنسى فضلك هذا عليّ.»

إنكب المعاون قاسم حسين مرة أخرى على الأوراق المكومة أمامه، يقرؤها وقال في نفسه «سأنجز هذه القضايا التافهة أولاً، لأتفرغ للتحقيق مع جليل محمود.» ولكنه سرعان ما أعادها إلى موضعها «لا أستطيع أن اقرأ.» وتذكر أن عليه أن يتصل بأحد وكلائه «إنني مهمل حقاً!» وكان يرتجف من الأنفعال.

- ١٤ -

كان المعاون قاسم حسين قد التقى هدى ثلاث مرات في الأيام الأخيرة، مرة في مقهى للعوائل بأبو نواس ومرة في مطعم كازابلانكا في الكسرة، وفي المرة الثالثة ذهبا في السيارة إلى شارع قناة الجيش. وفي كل مرة كانت العلاقة بينهما تتوطد أكثر فأكثر، ولم تعد إبتسامتها تفارقه حتى عندما يكون داخل غرفة التعذيب. كانت الدوخة تأتيه فتغرقه في ضباب عذب شفاف، يظل مخيماً على روحه النهار كله. وكان كثيراً ما يحاور نفسه «ما هذا؟ أهو الحب؟ أبداً، أبداً! لا يمكن أن أحب إمرأة، تفرط بزوجها بمثل هذه السهولة.» وكان قد لاحظ أنها لم تعد تتحدث عن جليل محمود، بل أنها كانت تزوغ عندما يقول لها شيئاً عنه. في المرة الأولى فكر المعاون قاسم أنها ربما كانت قد تورطت في حبه. وفي الليل أقنع نفسه بأنها امرأة، تبحث عن رجل، يشاطرها الفراش «لا يمكن لأمرأة شريفة أن تفعل كل هذا مع رجل آخر، حتى إذا كان صديقاً لزوجها.» ووبخ نفسه «يالي من حمار! لماذا تعمدت إفتعال الوقار معها؟» وقرر أن يتصل بها في اليوم التالي.

في المرة الثانية أمسك بكفها الصغيرة وضغط عليها، فشجعته بابتسامة عذبة ثم قالت:

ـ «هل تحبني؟»

جاء سؤالها مباغتاً، الا أنه قال بانفعال:

ـ «طبعاً! ماذا تعتقدين؟»

ـ «لكنني متزوجة. ألا يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟»

قال المعاون قاسم حسين باصرار:

ـ «ما يهمني هو أنتِ!»

ـ: «ولكنه صديقك. هل كنت تكذب علي؟»

ـ: «أبداً!»

وقالت هدى بأسى:

ـ «كنت أعرف أنه سيورط نفسه ذات يوم، ولكنه لم يكن يستمع إلي!»

وأجهشت هدى بالبكاء فارتبك المعاون قاسم حسين، الا أنه أخذ كفها في يده وراح يمسد شعرها بيده الأخرى:

ـ «لماذا تبكين؟ أرجوك، عيب!»

قالت هدى:

ـ «لنترك الموضوع. لا أريد أن أقول شيئاً عنه.»

وفي المرة الثالثة وهما في السيارة التي ركنها المعاون قاسم حسين جانباً في شارع قناة الجيش، إحتواها بين ذراعيه، مقبلاً إياها بلهفة شديدة، أثارت استغرابها، فقال مازحة:

ـ «ما هذا؟ ألم تقبل امرأة في حياتك؟»

وكان هو قد دفن وجهه في صدرها الناهد وراح يجرها اليه، منصتاً إلى دقات قلبها المتلاحقة فيما كانت رائحة جسدها تغرقه في دوار عذب. ولكنها مع ذلك كانت خائفة من الفضيحة وكانت تخفي وجهها خجلاً داخل السيارة كلما أضاءت المكان سيارة عابرة.

وفي ذلك اليوم بعد أن عادت هدى إلى بيتها شعر المعاون قاسم حسين أنه حار مثل شمس وأن شيئاً ما يشبه الضوء يتدفق منه إلى العالم، فقد كان، ربما لأول مرة في حياته، قادراً على أن يحس بنفسه، وكانت به رغبة لا تقاوم لكي يقفز في الشارع ويرقص ويخطب أيضاً في ساحة التحرير عن سعادته الجديدة. بيد أنه ظل هادئاً مثلما هو دائماً. وكان هو في الحقيقة موجوداً داخل رأسه «في المرة القادمة سآخذها معي إلى بيتي» وفكر بالجيران الذين يطلون برؤوسهم كلما فتح باب بيته «لا، لا، لا يمكن ذلك! هؤلاء الكلاب لا يكفون عن مراقبتي!» لم يكن يريد الذهاب إلى مكتبه، وكان أمامه متسع من الوقت ليفكر في هذه المرأة التي يفوح من شفتيها البنفسج. فكر في البداية أن يذهب إلى بار ما ويثمل أكثر من أي وقت آخر «لا، لا، لا أريد ذلك. الخمرة تقتل الفرح. إننا نشرب ليدخلنا الفرح. أما عندما نكون ممتلئين فرحاً فليس ثمة من مبرر للخمرة.» وضحك مع نفسه «هناك فلسفة خمرة أيضاً!» ولكنه انتبه فجأة «ولكن الناس يشربون عند الحزن. إنهم في الحقيقة يشربون دائماً، سواءاً كانوا فرحين أم مهمومين.» كان قد بلغ بارك

السعـدون فأوقف سيارته على جانب من الطريق وهبط. فكر «لست حزيناً الآن وليذهب العالم إلى الجحيم!» ودخل الحديقة، مستمعاً إلى الريح الهادئة توشوش في أعالي الأشجار، ثم استلقى على العشب الجاف تحت شجرة صنوبر وغفا مثل طفل كبير.

- ١٥ -

جاء المساء فانقضى نهار آخر من نهارات الصيف الخانق الذي يدخل بغداد مبكراً كل عام. فعندما فتحت مديحة نافذة غرفة الأستقبال المطلة على الشرفة التي تقع فوق الشارع الذي يمتلىء في الأماسي بالفتيان والفتيات تدفق تيار من الهواء العذب البارد فأطلت مديحة برأسها من النافذة وراحت تتنفس براحة، شاعرة بسعادة غير متوقعة، تأتيها بغتة مع هذه البرودة التي تملأ الجو. وسمعت حركة وراءها فأدرات رأسها، حيث كان المعاون قاسم حسين وهدى عبد القادر يغادران غرفة النوم. وقالت مديحة:

ـ «الشاي جاهز. سوف أجلبه حالاً!»

ولكن هدى قالت بود:

ـ «تأخرت كثيراً. أريد أن أذهب.»

قال المعاون قاسم حسين الذي كان يحتضنها بذراعه:

ـ «لماذا أنت مستعجلة! سوف أوصلك إلى البيت!»

وعلقت مديحة:

ـ «هذه زيارتك الأولى لي، ولا تشربين الشاي. عيب يابنت!»

ودخلت إلى المطبخ، مرددة مقطعاً من أغنية مصرية. وضع قاسم يده برفق على شعر هدى وقال:

ـ «هل تحبينني؟»

ـ: «أكيد أنني لا أكرهك!»

ـ: «وجليل؟»

شعرت هدى أنه يذلها بطريقة ما:

ـ: «لماذا تسألني عنه؟»

ـ: «لأنه صديقي!»

قالت هدى بسخرية:

- «يبدو أنك تحبه كثيراً!»

ضحك المعاون قاسم وهو يجرها اليه فأطرقت هدى خجلة:

- «أريد أن أذهب. لقد تأخرت.»

ودخلت مديحة، حاملة معها صينية الشاي:

- «بيتي هو بيتكم، والله لو تعرفين ياهدى كم أقدر قاسم!»

ضحك المعاون قاسم:

- «لا مجاملات يامديحة.»

صبت مديحة الشاي، في حين نهض المعاون قاسم حسين ودخل الغرفة لأرتداء سترته التي كان قد علقها على المشجب. انتهزت مديحة الفرصة وقالت لهدى:

- «تعالي كل يوم. هناك زبائن كثيرون. هل تقدرين أن ترجعي بعد ساعة؟ سوف أخابر شخصاً، يعطيك عشرين ديناراً إذا بقيت معه في الليل!»

ولكن هدى نظرت اليها باحتقار:

- «لست كما تعتقدين. ما هذا الذي تقولينه؟»

فأجابت مديحة ببرود:

- «لم أقل شيئاً غريباً. أنت متزوجة... أليس كذلك؟»

وأشارت إلى خاتم الزواج في يدها، ثم أضافت:

- «ومع ذلك جئت مع قاسم. ما الفارق؟»

فـردت هدى مضطربة:

- «لأنني أنا الذي أردت ذلك.»

وعندما دخل المعاون قاسم حسين إنقطع حديثهما فجأة. وفكرت مديحة، بسبب خبرتها الطويلة أن البداية تكون صعبة دائماً، ولكنها ستلين مع الزمن، في حين قالت هدى لنفسها «يالها من قوادة حقيرة!»

●

في آخر الليل وقف المعاون قاسم حسين أمام جليل محمود الذي كان مغلولاً إلى النافذة. لم يقل شيئاً. كان يريد أن يحدثه عن هدى الجميلة التي تخونه كل يوم. كان يريد أن يحدثه عن جسدها الذي يرتعش مثل طائر مذعور، ولكنه اكتفى بالصمت. كان يفكر مع نفسه، ربما كان صامداً لأنه لا يريد أن يعود اليها مقهوراً.

مد يده ورفع رأس صديقه المدلى بين كتفيه وقال:

ـ «أيها الحمار!»

بيد أنه رأى في وجه جليل محمود شيئاً، لم يفطن اليه من قبل. رأى في اللحظة ذاتها وجهه هو. كان مغلولاً إلى النافذة، حيث امرأة تخونه مع رجل آخر. وفتح شفتيه بصعوبة:

ـ «لماذا كل هذا؟ لماذا؟»

- ١٦ -

لقد مرت الحرب على الناس مثل حلم سريع يصعب الأمساك به. كانت شيئاً، يشبه اللعب وربما كانت أقرب إلى الوهم منها إلى أي شيء آخر، ومع ذلك فانها غيرت كل شيء. لم يعد الناس هم نفس الناس السابقين ولم تعد الشوارع هي نفس الشوارع. فقد تغير شيء ما في القانون الذي كان يحكم كل شيء. وكان يهم المعاون قاسم حسين أن يتعرف على موضع الصدع في القانون. فمن خلال هذه المعرفة وحدها يمكن أن يواصل عمله الذي لم يتغير أبداً طيلة ارتباطه بمهنته.

فهو يكره أن يعطي نفسه للصدفة وتقلبات الظروف. وربما لهذا السبب وحده، رغم شعوره بمرارة الخسارة، كان مغتبطاً بشكل ما للنهاية التي آلت اليها الحرب، حيث وجد نفسه غارقاً في العمل فجأة، فقد انفجر الناس الذين ظلوا هادئين طيلة عدة أعوام دفعة واحدة واكتسحوا الشوارع، هادرين مثل موجة عالية لا تقاوم. وكان هو يدخل الموجة مع رجاله أو يقف عند رؤوس الأزقة ليقتفي أثر ضحاياه الجدد، وكانت الموجات البشرية التي تضطرب بها الشوارع كل يوم أشد وأقوى من أن يواجهها برجاله المتناثرين، ولكنه كان يعود كل يوم بعدد منهم ويبدأ طقوسه المكررة. وهكذا عندما انتهت الحرب كانت المعتقلات والسراديب قد امتلأت بمعتقلين جدد، اقتنصهم رجاله من كل مكان في بغداد. وكان ذلك يعني المزيد من الجهد والعمل والتعب والسهر في الليل. وشعر المعاون قاسم حسين لأول مرة منذ بضعة أعوام أن الدائرة قد استعادت جوها الأحتفالي القديم وأن الحياة بكل زخمها وقوتها تتدفق في كل حجرة وممر وسرداب. وكان ذلك يملأ قلبه بالبهجة والفرح. إن أصعب ما يمكن أن يواجه المعاون قاسم هو أن يدفع به إلى البطالة والكسل. عند ذاك ما الذي يمكن أن يفعله بنفسه؟ لا شيء سوى أن يقصد حانة من الدرجة الثانية أو الثالثة ويثمل حتى النوم، أن يقضي ليلته مع بغي لا تطالبه بثمن، أن يتسكع في آخر الليل ويشتم السكارى العائدين إلى بيوتهم.

قرع جرس التلفون. رفع المعاون قاسم حسين السماعة فسمع هدى تقول له:

ـ «إسمع ياقاسم. إنني خائفة. إنهم يهددونني!»

ورد قاسم:

ـ «ما هذا الذي تقولينه؟ من يهددك؟»

ـ: «إنهم يهددونني بسببك. تعال وأشرح لك كل شيء.»

وقال قاسم بغيظ:

ـ: «حسناً. إنني قادم الآن. لا تبكي أيتها البلهاء!»

وسمعها تقول:

ـ: «سوف انتظرك.»

كان قاسم قد نسي جليل تماماً أيام الحرب وبعدها، مانحاً نفسه لضحاياه الجدد الذين كان يتوجب عليه أن ينتخلهم قبل اعادة الطارئين السذج منهم مرة أخرى إلى الشوارع التي جاءوا منها. ولم يكن هو الوحيد الذي نسيه، فقد نسيه الجميع كما يبدو. فحتى المدير العام الذي كان قد التقى قاسم عدة مراة خلال الايام الأخيرة لم يطلب منه شيئاً سوى بسط سيطرته على الشارع ومراقبة أولئك الذين قد يستغلون عواطف الناس ويفجرون الموقف من جديد. ولكن ها هو جليل محمود يبزغ فجأة من النسيان ويطفو على السطح، مذكراً قاسم بأنه لا يستحق كل هذا الاهمال الذي أحاق به بسبب الحرب. كان جليل يطل هذه المرة في صوت هدى المرتبك المتشنج الساخط. «أتراها تواجه أزمة فعلية أم انها تفتعل الكذب لتشده إليها أكثر فأكثر؟» وغطت العتمة أفكار قاسم فقال «يالها من عاهرة. كيف ارتضى جليل لنفسه أن يتزوج مثل هذه المرأة التي لا تجد غضاضة في أن تخونه حتى مع الشيطان؟» وشعر بشيء من الحقد يداخله فقد كان جليل رغم كل شيء صديقه أيضاً، ولم يكن قادراً على التخلص من مشاعره هذه «ما الذي أصابني؟ لم أعد أعرف شيئاً، كيف أحب شخصاً أخونه مع امرأته؟ حسناً.. سأذهب اليها لأرى ما تريده مني هذه المرة. واذا ما شعرت بأنها تكذب فسوف أبصق في وجهها وأركلها مثل كلب.»

ولكن ما كاد قاسم يلتقيها مرة أخرى في شقة مديحة حتى اختفى كل ما في رأسه ورأى نفسه يقول لها باهتمام مفرط:

ـ «ماذا حدث؟ من الذي يهددك؟»

كانت هدى مضطربة تماماً فألقت بنفسها على الأريكة:

- «هيا اجلس. سأروي لك كل شيء.»

ذهبت مديحة إلى المطبخ. ألح قاسم:

- «لن أمكث طويلاً. لقد تركت عملي وجئت إليك.»

قالت هدى:

- «إتصلت بي ماجدة أحمد وهددتني. طلبت مني أن أقطع علاقتي بك. لقد عرفوا كل شيء.»

واستغرب قاسم:

- «ماجدة احمد ؟ من هي؟ لماذا لم تخبريني عنها من قبل؟»

- «انها طالبة في كلية التربية، الصف الثالث - انكليزي كما أعتقد.»

- «من أين تعرفينها؟»

- «إنها من أصدقاء جليل. أعتقد أنها تحبه!»

وأضافت هدى بانكسار:

- «لست أدري. أعتقد أنه يحبها هو أيضاً! إنه لا يعلن عن نفسه بسهولة، كما تعرف. لقد انقلب علي بعد زواجنا بفترة وجيزة. كان يعتقد انه اخطأ في ارتباطه بي. لم أكن اعني شيئاً بالنسبة له. كان يعيش في عالم آخر، غير عالمي. ولقد بكيت كثيراً قبل أن أنزعه من قلبي.»

كانت هدى تعبث بأصابعها على الطاولة، ثم أخرجت سيكارة من حقيبتها الجلدية الرمادية وأشعلتها بارتباك:

- «ينبغي أن تفعل شيئاً. لم يعد لي أحد غيرك!»

- «كان قاسم مختنقاً تحت وطأة عواطف متناقضة:

- «أخبريني بكل ما قالته لك بالضبط، ولكن بدون أكاذيب!»

بوغتت هدى بقسوة لهجته فانفجرت باكية وقد شعرت بالقهر:

- «هيا اتركني. لقد كانت ماجدة محقة في كل ما قالته عني!»

ودخلت مديحة:

- «ما هذا؟ لماذا جعلتها تزعل ياقاسم؟ إنها تحبك. الا تفهم؟»

فأجاب قاسم بعصبية:

- «إخرسي!»

فقالت مديحة:

ـ «ماذا بك ياعزيزي؟ إهدأ قليلاً. ربما منحتك القهوة بعض الراحة.»

وعادت مرة أخرى إلى المطبخ بينما كانت هدى قد كفت عن البكاء. قال قاسم:

ـ «لم أقصد شيئاً. إنني متأثر فقط. هذا كل ما في الأمر!»

ـ «أنت تهيننني رَغم كل ما تحملته من أجلك.»

وانتابت قاسم عاطفة تبعث على البكاء:

ـ «تعرفين... إنني احبك. ولكنني متأثر لما حدث. إنسي الأمر كله. لن يحدث لك أي شيء. أما ماجدة فسأجعلها تركع تحت قدميك بعد أن الطخها بالطين. ربما كانت ماجدة مفتاح القضية كلها!»

انفجرت هدى مرة أخرى:

ـ «أرجوك أن تبتعد عنها والا عرفوا بانني أخبرتك. لا أريد أن أورط نفسي اكثر.»

قال قاسم بهدوء:

ـ «ولكنك متورطة ياعزيزتي. ولا فائدة من التراجع الآن!»

ثم ابتسم لها وقال:

ـ «لا تخافي. إنهم أجبن من أن يفعلوا شيئاً.»

فقالت هدى:

ـ لا أدري، لا أدري، انني خائفة.

ونهض المعاون قاسم حسين:

ـ «سوف أتصل بك فيما بعد. لابد من أن أعود إلى الدائرة الآن!»

ودخلت مديحة، جالبة معها صينية القهوة:

ـ «إلى أين أنت ذاهب يارجل؟ ألا تشرب القهوة؟»

ـ «إنني مستعجل.»

ـ «هيا اشرب القهوة، ثم اذهب. ماذا بك هذه الأيام؟ هل انقلبت الدنيا؟ ثم ألا تريد أن تصالح هدى قبل ذهابك؟»

إبتسم المعاون قاسم حسين:

ـ «لقد تصالحنا.»

فغمزته مديحة بطرف عينها:

ـ «أهذه مصالحة؟»

قالت هدى:

ـ «إنني تعبانة. لقد تصالحنا وانتهى كل شيء.»

فعلقت مديحة مازحة:

ـ «وأنا ماذا يهمني؟ لماذا أزعل نفسي؟ هيا اجلس ياقاسم واشرب القهوة قبل أن تذهب. ثم انني محتاجة إلى خمسة دنانير.»

جلس قاسم ليشرب القهوة وقال:

ـ «لا أحمل معي نقوداً الآن.»

ـ «ولكنني أحتاجها الآن.»

ثم اتجهت بعينيها إلى هدى:

ـ «وهل أنت مفلسة أيضاً؟»

رد قاسم بشيء من الغضب:

ـ «اتركيها يامديحة. سوف أمر عليك مرة أخرى في الليل.»

فأجابت مديحة مستنكرة:

ـ «ألا يحق لي أن أستدين من صديقتي؟ لماذا زعلت؟»

إبتسم قاسم مكتفياً بهز رأسه، ثم قال:

ـ «لابد أن اذهب. لقد تأخرت!»

قالت هدى:

ـ «متى أراك مرة أخرى؟»

ـ «إتصلي بي غداً صباحاً.. بالتليفون.»

وعندما غادر قاسم الشقة شعر أنه قد أزاح عن روحه ثقلاً شديداً. وفكر مع نفسه: «يبدو انها تحبني حقاً» ثم ابتسم «ربما أحبتني ماجدة أيضاً» وأشعل سيجارة قبل أن يفتح باب سيارته التي كانت تقف أمام العمارة الزرقاء.

- ١٧ -

أجتـاز المعاون بوابة كلية التربية فيما توقفت إثنان من رجاله أمام المدخل وانتشر آخرون على طول السدة الترابية التي تشطر الكلية إلى نصفين. كان في إمكان المعاون أن يصدر أوامره إلى رجاله ليجلبوا له ماجدة ولكنه لم يكن مستعداً للمجـازفـة. فقد تفلت ماجدة من ايديهم وتختفي وعند ذلك يضيع كل شيء. فهؤلاء الناس يمتلكون قدرة غير معقولة على التبخر. وكان في الوقت ذاته يريد أن يتجنب إثـارة الطلبة. فلو كشفوا حقيقته أو حقيقة رجاله فانهم سيثيرون عاصفة لم يكن مستعداً لمواجهتها، ولكنه كان في الوقت ذاته لا يريدها أن تفلت من بين يديه هذه المرة.

لقد ذهب رجاله ليلة أمس إلى القسم الداخلي الذي تسكنه في الوزيرية ولكنها لم تكن هناك وانتظر رجاله عودتها طوال الليل دون جدوى. لابد انها تسكن في مكان آخر. أو أنها قد شمت الخطر. وهذا يتطلب منه الكثير من الحذر. إن أي خطأ في حركاته قد يساعدها على الافلات مرة أخرى. وكان قد فكر أن يمر على العميد في مكتبـه لولا انـه التقى بكمال يوسف وهو أحد مخبريه في الكلية عند الحديقة. وهمس كمال: «انها تجلس في النادي مع مجموعة من أصدقائها». وقال المعاون قاسم حسين:

ـ «أريد أن اراها.»

كانا يسيران باتجاه النادي. قال كمال مضطرباً:

ـ «أخشى أن تتعرف عليك.»

كان قاسم يدخن، ملقياً نظرات سريعة على الطالبات الجميلات اللواتي كن يتنزهن في الحديقة. قال:

ـ «لا أعتقد انها تعرفني.»

وفكر مع نفسه:

ـ «لابد أن شخصاً آخر أخبرها بعلاقتي مع هدى!»

ثم طلب من كمال:

ـ «حسناً.. لا ينبغي أن أجازف بك. لا أريدهم أن يروك معي. هيا أدخل النادي وحدك. أجلس على مقربة منها. أو اعطني إشارة تساعدني في التعرف عليها. هيا اذهب وسوف اتبعك!»

لم يكن ثمة كثير من الطلبة في النادي. فقد كان معظمهم منهمكاً في الامتحانات التي باغتتهم بعد ضجة الحرب. ووقف المعاون برهة عند المدخل، ملقياً نظرة متفحصة على الجالسين. ولكنه انتبه إلى أن حركته قد تجذب الأنظار اليه. وكان قد فكر انه قد لا يبدو مثل الطلاب الآخرين، فاتجه نحو المقصف.

وكان يشعر باضطراب في ساقيه. ووقف طالباً قدحاً من الشاي. ثم التفت يتفحص الوجوه. كانت ثمة فتيات كثيرات يتناثرن على الموائد في حلقات. وحاول أن يتعرف عليها ببصيرته وخبرته. ولكنه أخفق في ذلك، ربما بسبب ارتباكه وشعوره بوجوده في مكان لا يمت اليه بصلة. ورأى كمال يتجه نحو المقصف. فتلكأ وهو يستلم قدح الشاي من العامل ويدفع له الحساب. وتوقف كمال قربه وطلب هو الآخر قدح شاي. وما أن استدار عامل المقصف حتى همس في أذن المعاون قاسم حسين:

ـ: «انها تجلس في الركن الأخير من النادي مع طالبتين أخريين وثلاثة طلاب. انها الفتاة التي ترتدي قميصاً أحمر وتنورة رمادية.»

وحمل المعاون قدح الشاي بيده وجلس في الركن الآخر المواجه لمائدة ماجدة، في حين احتل كمال يوسف مائدة عند مدخل البوابة الخارجية.

وفكر المعاون الذي راح يحتسي الشاي الأسود الرديء بدون أي رغبة «هذه هي اذن ماجدة» وأشعل سيجارة ثم راح يختلس النظرات إليها حيث كانت تتحدث بحيوية طاغية. لم تكن جميلة ولكنها كانت تمتلك شيئاً خاصاً بها، شيئاً يضفي على وجهها غلالة من السحر والبهجة فيما كان شعرها الكستنائي ينقطع عند الرقبة ورأى المعاون أن عينيها الصغيرتين العميقتين تومضان ببريق مسكر فيما كان وجهها القمحي المدور يخفي لمسة متوحشة، لم يستطع تحديدها أبداً، رغم الرقة التي يشف عنها ثغرها الوردي الصغير وأنفها الدقيق، وقال قاسم في نفسه «انها تبدو أجمل من هدى، ولكنها تفتقر إلى انوثتها. إن هدى خلقت لتكون أنثى قبل أي شيء آخر أما هذه الفتاة التي تجلس في الطرف الآخر من النادي فثمة ما يملأ رأسها

الصغير بالأوهام، ربما هي نفس اوهام جليل، الذي قد يقبل موته لا لشيء سوى العناد.»

كان ثمة شبان وشابات يدخلون وآخرون يغادرون النادي بين فينة وأخرى مسرعين أو متباطئين.. في حين كان المسجل الموضوع عند مدخل النادي يذيع أغاني لفيروز. وكان ثمة طلاب وطالبات منفردون يتصفحون كتبهم وملازمهم الموضوعة أمامهم. وفي الحلقات المحتشدة حول الموائد كان معظم الجالسين يتحدثون بأصوات مرتفعة، مطلقين بين حين وآخر قهقهات عالية، كانت تؤلف مع الأصوات الأخرى ضجة عالية لا يطيقها الا أولئك الذين اعتادوا عليها، ولذلك شعر المعاون بشيء من الضيق الذي حاول اخفاءه بالتدخين، وخاصة انه وجد نفسه ملتصقاً بالكرسي الذي يجلس عليه، لا يجروء على مغادرته، فقد كان مكوثه هناك يمنحه بعض الأمان. وفكر عدة مرات أن يغادر النادي إلى الحديقة الا انه خشي أن يجتذب أنظار الطلبة مما جعله يزداد التصاقاً بمقعده. وجلس طالب وطالبتان على مقربة منه. وقال في نفسه:

ـ: «لو كانت معي جريدة ما لدفنت وجهي فيها.»

واشتد به الضجر فرفع نفسه من كرسيه وغادر النادي متباطئاً إلى الخارج، حيث جلس على إحدى المصاطب الخشبية التي تقع بمحاذاة الحديقة الكبيرة. ومن مكانه رأى رجاله يجلسون على السدة الترابية عند سكة القطار الذي يخترق الكلية مرتين أو ثلاثاً في اليوم، فرفع يده ملوحاً لهم دون أن يغادر مكانه. وهبط المفوض عدنان باتجاه قاسم فيما نهض الرجال الآخرون دون أن يغادروا اماكنهم. قال قاسم مخاطباً المفوض عدنان الذي ظل واقفاً:

ـ: «إنها في النادي. لا أريدها أن تفلت منا هذه المرة. ضع إثنين من رجالك عند الباب الجانبية المؤدية إلى السكة. وليقف الآخرون عند البوابة. أما أنا فسوف انتظرها هنا حتى تخرج. أريد أن القي القبض عليها بنفسي.»

وتساءل المفوض عدنان:

ـ: «كيف سنعرفها؟»

قال المعاون بشيء من التأنيب:

ـ: «قلت لك اني سأنتظرها هنا. هيا اذهب إلى رجالك ولا تقلق، لن ادعها تفلت مني.»

كانت الريح تخفق بين الاشجار المتعالية وراء ظهر المعاون الذي كان

يجلس في ظلها في حين كان مئات من الشبان والشابات يملأون المكان: محبون مبتهجون، طلبة مجتهدون، وآخرون يجلسون على المصاطب في انتظار شيء ما أو لا شيء على الاطلاق. وفكر المعاون الذي كانت عيناه جامدتين على باب النادي «قد يكون صعباً انتزاع ماجدة من بين أيدي هؤلاء الناس، ولكنها مغامرة لابد منها». وانتظر حتى اصابه الملل «ما الذي يجعلها تجلس في النادي كل هذه الفترة؟ أتراها شعرت بوجودنا هنا؟ كلا.. لا يمكن ذلك. انها لا تعرف أحداً منا. لا أدري، ربما تعرفني. لا.. لا أعتقد ذلك، إنها تعرف إسمي فقط. لابد ان آخرين أخبروها بعلاقتي مع هدى. ومهما يكن من أمر فسوف اعرف كل شيء منها، هذا اليوم بالضبط. واذا ما أرادت أن تجعل من نفسها بطلة فسيكون لنا ما يملأ حياتنا بالمتعة. ولكن.. لتخرج فقط!»

كان الحقد يهز كل عضلة في جسده مما جعله أكثر ضجراً مما مضى واحتار.. ماذا يفعل. لا يمكن أن ينتظرها اكثر. وفكر أن يدخل إلى النادي ويطلب منها الخروج بحجة ما «ما هذه الحماقة ياقاسم؟ لقد بدأت تهزل» هكذا كان يقول في رأسه. ونهض. كان يريد أن يتمشى قليلاً ليروح عن نفسه. فسار باتجاه النادي بخطوات بطيئة. ولكنه ما كاد يبلغ الباب حتى استدار مرة أخرى بحركة مسرحية كما لو أنه قد نسي شيئاً أو غير رأيه فجأة. وعاد يسير في الاتجاه الآخر حتى بلغ البناية الوسطية فارتقى السلالم الواطئة القليلة وألقى نظرة على لوحة الرسائل، ثم استدار عائداً مرة أخرى باتجاه النادي. وشعر برجفة في ساقية فقد بوغت تماماً. كانت تسير وحدها، حاملة في يدها كتابين مغلفين بالجرائد. وعلى كتفها اليسرى تتدلى حقيبة صفراء. وقال في نفسه «إنها جميلة حقاً!»

ففي المرة الأولى رآها وهي جالسة أما هذه المرة فقد لاحظ قوامها بكل تناسقه وحيويته، توقف قليلاً حتى عبرته، ثم تبعها بهدوء، تاركاً بينه وبينها بعض المسافة. وأحس رجاله الذين كانوا يقفون على السدة الترابية بأنه قد وقع على طريدته فانحدروا إلى الساحة مسرعين، ثم لحق به أحدهم حتى وازاه. قال له قاسم بهمس:

ـ: «إنها هذه التي تسير امامي. هيا اسرع ولكن لا تدعها تشعر بك!»

فأسرع الشاب ذو السحنة الريفية حتى عبر الفتاة باتجاه البوابة الخارجية، ولحق به صاحباه الآخران. كان قاسم قد اقترب كثيراً من ماجدة «يالها من غبية، أتراها تنوي مغادرة الكلية بهذه البساطة، بدون رفقة على الأقل». بيد أن المعاون

اكتشف خطأه في اللحظة ذاتها . . فقد اتجهت ماجدة نحو البناية الاولى القريبة من الباب . فكر قاسم :

ـ : «اذا دخلت البناية فلسوف نضطر إلى انتظارها مرة أخرى . وقد تفلت من احدى الابواب الجانبية أو الخلفية . »

ولذلك لم يجد بداً من التقدم إليها . ووجد نفسه يمسك بيدها بغتة :

ـ : «هل تسمحين؟ هناك ناس يريدون أن يتحدثوا اليك . »

بوغتت الفتاة لبرهة ، ثم تماسكت وصرخت في وجهه :

ـ : «أترك يدي أيها الحقير! »

وسحبها من يدها فضربته بالكتابين اللذين كانت تحملهما معها على وجهه فانزلقا من يدها على الأرض ، وجرت نفسها . قال المعاون قاسم حسين :

ـ : «تعالي ، تعالي ، لن تفلتي منا هذه المرة . »

وضربته ماجدة بيدها التي كانت قد تحررت من الكتب وهي تصرخ فيه :

ـ : «أتركني أيها الكلب! »

وكان الرجال الستة الذين يقفون عند البوابة قد تركوا مكانهم وأسرعوا إلى المعاون ، مساعدين إياه في جر الفتاة إلى خارج الكلية . ولكن الطلاب الذين كانوا منتشرين في الساحة انتبهوا إلى الجلبة والصراخ فاحاطوا بالمعاون ورجاله . وكانت الأصوات تتعالى :

ـ : «هيا اتركوها . . كلاب! »

وتقدم أحد الطلاب فصفع أحد رجال قاسم ، في حين هجم ثلاثة منهم على الشاب ليمسكوا به غير ان آخرين تصدوا لهم بالطابوق والحجارة فيما كانت الصرخات والهتافات تختلط مع بعضها . كان الموقف قد أصبح خطراً على المعاون ورجاله الذين كانوا يواجهون عدداً كبيراً من المهاجمين رغم انهم كانوا قد افلحوا في جر ماجدة إلى خارج البوابة ، مما جعل رجال قاسم يشهرون مسدساتهم في أوجه المهاجمين الذين تراجعوا قليلاً ثم اندفعوا في موجة مضطربة غير متناسقة . وضغط احدهم على الزناد فانطلقت رصاصة اعقبتها عدة رصاصات أخرى . وتشتت الطلبة متراجعين في فوضى كلية مما أعطى مجالاً لقاسم والرجلين الآخرين اللذين كانا يمسكان بماجدة في دفعها إلى داخل السيارة التي كانت تقف في الباحة الخارجية . وتراجع الرجال الأربعة مرة أخرى أمام عدد من الطلبة الذين عاودوا الهجوم بالطابوق . كان عددهم أقل هذه المرة ، ولكن اكثر ضراوة . وانبجس

الـدم من رأس أحـد الرجال الأربعة مغطياً وجهه وملطخاً قميصه فسقط من يده المسدس على الأرض وهو يصرخ من الالم. وانطلقت رصاصات أخرى، غير ان الطلاب المهاجمين لم يتوقفوا في حين كان هتاف جماعي يطلقه عشرات الطلاب والطالبات الذين احتشدوا عند المدخل:

«لا ارهاب ولا رجعية..

فلتسقط الدكتاتورية».

وعنـدمـا دس الرجال الأربعة أنفسهم داخل السيارة الثانية، كان الطلاب المهاجمون قد اندفعوا نحوهم مقتربين أكثر من السابق، واندفع أحد المهاجمين أكثـر من الآخـرين وقـذف السيارة الثانية بحجارة كبيرة فتهشم الزجاج الخلفي. وعنـدمـا تحـركت السيارتـان محاولتين الابتعاد عن دائرة الهجوم، انطلقت عدة رصاصات، بينما اندفع آخرون وراء السيارتين اللتين أصبحتا في الشارع العام.

كانت الحرب قد أطلقت صرختها في المدن الرملية، ثم انتهت بأيامها الستة مرة وإلى الأبد، تاركة ألوف الضحايا المبعثرين في الصحراء، وعشرات الالوف من المعتقلين في عواصم العرب القديمة. لقد أوجدت مهنة للجميع: شهداء وقتلة، ضحـايا وجـلادون. كانت الصـرخة تدخل كل حي في المدينة فيسمعها الناس وينهضون. لم تعد بغداد مدينة للموتى فقد كان ثمة ضوء يتألق في البعيد فيتبعه الرجال والنساء غير هيابين أن ينتهي بهم المدى إلى معتقل سري أو سرداب تحت الأرض. وكـانت المعتقـلات اذ تكتظ بهم يرسلونهم إلى المخافر الصغيرة التي يحـرسها شرطيون بسطاء يستجدون السيجاير من ضيوفهم الشبان. ان الارهاب عندما يبلغ أقصى ما يقدر عليه يكف عن أن يكون ارهاباً. وكان الالوف يواجهونه كمزحة، وربما كتسلية أيضاً، ولكن كان ثمة عذاب أيضاً يحرق الجلادين.. اذ لم يعـد ثمة وقت يكفي الجميع. وكان المعاون الذي يقف كل ليلة ازاء جليل وماجدة يفتح أبوابه كل صباح ويقذف بالمعتقلين إلى الشارع بعد ركلة أو صفعة أخيرة. أما هما فقد كانا بالنسبة له أكثر من رجل وامرأة معتقلين. إن حياة واحدة لم تكن تكفيه ليكرسها من أجلهما فهما وحدهما يشعرانه أنه يعمل، هو المرتفع إلى الليل.

- ١٨ -

إتصل أمين، وهو شرطي أمن، يشبه الفأر بالمعاون قاسم حسين وأبلغه:

- «سيدي، وقعت مصيبة. لقد قذفوا قنبلة على سيارة شرطة!»

وامتقع وجه قاسم حسين. كان الحر أقسى من أن يحتمله. وفتح فمه الذي كان يلصقه على سماعة التليفون، بصعوبة:

- «هل مات أحد؟»

أجاب الصوت من الطرف الآخر:

- «لا، ولكن هناك بعض الجرحى.»

وكان المعاون قاسم حسين يصرخ:

- «أين حدث ذلك؟»

-: «عند سينما النصر. يبدو أنهم كانوا قد نصبوا كميناً!»

وسأل قاسم:

- «هل اعتقلتم أحداً؟»

-: «كلا. لقد قتل أحدهم وفر الباقون. لا أعرف.. ماذا أفعل!»

أمر المعاون قاسم حسين:

- «دع كل شيء كما هو. إنني قادم.»

بعد خمس دقائق كان المعاون قاسم حسين مع عدد من رجاله يقف أمام سيارة محطمة، منحرفة باتجاه الرصيف. كانت حركة السيارات متوقفة تماماً ما بين ساحة النصر والجندي المجهول ما عدا سيارات ممتلئة بالشرطة، راحت تحتل مواقعها عند مداخل الأزقة. وكان ثمة رجال يغادرون الشارع مسرعين، ويختفون في أقرب زقاق يبعدهم عن دائرة الخوف، بينما كان رجال قاسم يتفحصون الوجوه، مترددين في أن يفعلوا أي شيء. كانوا خائفين من ذلك المساء الذي باغتهم. فاذا كان ثمة شيء يحدث الآن فعليهم أن يظلوا بعيدين عنه. وكانوا يعرفون بسبب خبرتهم الطويلة ان المقامرة في مثل هذه الساعة قد تعني الكثير. وكان الكثير يعني

حياتهم التي لم يكونوا على استعداد للتخلي عنها. كانوا ينتظرون الأوامر. ولكنهم كانوا ينتظرون قبل ذلك الأطمئنان الذي يمنحهم شجاعة العمل. ولكن كان ثمة رجل واحد على الأقل لا يطلب هذه الطمأنينة ليمد يديه إلى جيوب الرجل القتيل، مفتشاً عما يمكن أن يعرفه على هويته. ونهض المعاون واقفاً أمام الجثة:

ـ: «لا يحمل هوية.»

كان القتيل شاباً في حوالي الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، يرتدي قميصاً أبيض بكمين قصيرين، وبنطلوناً أزرق. وكان الدم قد ترك ثلاث بقع عند الصدر وفوق البطن. وقال المعاون لنفسه «ان وجهه مألوف بالنسبة لي. ربما كنت أعرفه» واقترب منه أحد رجاله:

ـ: «هل ننقله؟»

طرده المعاون قاسم حسين:

ـ: «كلا. لماذا تركت موقعك؟ اننا ننتظر مجيء المدير.»

وابتعد الرجل. ناداه المعاون:

ـ: «تعال راقب الجثة. لا تدع أحداً يلمسها!»

وذهب المعاون ليلقي نظرة على السيارة، حيث يوجد جريحان ينزفان بغزارة. كانا مرميين على الارض، أمام السيارة التي كان زجاجها متناثراً على اسفلت الشارع. وفتح أحد الجريحين عينيه وقال باكياً:

ـ: «لماذا تتركوننا نموت هنا؟ لماذا لا تنقلوننا إلى المستشفى؟»

رد المعاون قاسم حسين:

ـ: «اهدأ قليلاً. سوف ننقلكم بعد قليل.»

كان الجميع ينتظرون المدير الذي قال للمعاون قبل مغادرته الدائرة:

ـ: «لا تفعل أي شيء، دعوا كل شيء كما هو. إنني قادم حالاً!»

ولم يكن المعاون وحده الذي ينتظر وصول المدير، فقد كان هناك أيضاً رجال الاسعاف الذين وقفوا ضجرين أمام سيارتهم البيضاء، والشرطيون الذين كانوا يتبادلون أحاديث مترددة عن مخاوفهم وهواجسهم. وضغط المعاون على أسنانه:

ـ: «لقد نزفا كثيراً.»

وأخيراً وصلت سيارة المدير فهبط منها واتجه نحو السيارة المحطمة ثم ألقى نظرة على جثة الشاب الذي القى القنبلة وسأل المعاون قاسم حسين:

ـ: «هل عرفتم شيئاً عنه؟»

أجاب المعاون:

ـ: «ليس بعد. إنهم لا يحملون الهويات في مثل هذه الحالات، كما تعرف. لم يكن يحمل في جيوبه سوى أربعة دنانير وبعض النقود الصغيرة، مع مفتاحين صغيرين ولا شيء آخر.»

وسأل المدير:

ـ: «ألم يكن معه أحد؟»

ـ: «لقد رأى رجالي ثلاثة شبان آخرين ينسحبون إلى الشارع الفرعي، حيث أقلتهم سيارة رمادية واختفوا بسرعة بعد أن اطلقوا النار على رجالنا الذين هرعوا إلى المكان.»

ـ: «وكيف قتل؟»

قال المدير ذلك وهو يشير إلى جثة الشاب الذي كان لايزال مرمياً على الرصيف. وهمهم المعاون:

ـ: «كان يقف هناك أمام السينما عندما اندفع فجأة وقذف السيارة بقنبلة كان يحملها في يده، ولكنه أخطأها، ربما بسبب السرعة والارتباك، ومع ذلك انحرفت السيارة نحو الرصيف واصطدمت بالعمود. وقد أطلق عليه رجالنا النار وأردوه قتيلاً.»

وقاطعه المدير:

ـ: «حسناً، حسناً، ارسل الجريحين إلى المستشفى ودع رجالك ينقلون جثة القتيل إلى الدائرة. أريدكم أن تعرفوا عنه كل شيء. بأسرع ما يمكن. سوف اجتمع بكم بعد ربع ساعة في مكتبي. هيا اسرع.»

وقال المعاون قاسم حسين:

ـ: «نعم سيدي!»

وظل مسمراً في مكانه حتى اختفت السيارة التي تقل المدير. وعندما حدق أمامه رأى انه كان يقف على بركة دم لزج، دم انساني طري، فدفع قدميه باتجاه الرجال الذين كانوا ينتظرونه على مقربة من الجثة، بعد أن مسح أسفل حذائه بالعشب.

- ١٩ -

مدية؟ كانت ثمة مدية مغروسة في لحمه. وكان يرى بعينيه دمه يندلق من بين اصابعه فينسكب على الاوراد البرية التي طالما شاهدها في البراري الشمالية، فيتحول إلى بلورات ذات أشكال مختلفة. وقال «انني أحلم. وها انني اخرج صفر اليدين.» ولوى رقبته جانباً بعد أن وجد نفسه يجلس على كرسيه مرة أخرى. لم يكن قد نام منذ ثلاثة ايام سوى بضع ساعات قلائل، كان ينتهزها قبيل الفجر، حيث يرمي بنفسه، بدون أن يغير ملابسه فوق أحد أسرة الحراس الليليين. منذ ثلاثة ايام وهو هنا، يحاول العثور على القتلة، عبثاً. ورغم ان المدير كان قد طلب منه أن يبحث عن خيط جديد يقوده اليهم الا أنه كان مسكوناً بهاجس أن جليل وماجدة ربما كانا يعرفان الرجال الذين كان يبحث عنهم وذلك الشاب القتيل المحفوظ داخل ثلاجة في معهد الطب العدلي. كان جليل وماجدة قد توقفا أمام الجثة دون أن تطرف عيونهما. لكنهما كانا حزينين وهزا رأسيهما:

ـ: «لا نعرفه.»

كان المعاون متأكداً بطريقة غامضة من انهما يعرفانه مثلما كان متأكداً من أنهما لن يبوحا بكلمة واحدة. ولكنه لم يكن ليريد أن يعترف أمام رئيسه بهزيمته. ولذلك قال للمدير عندما سأله «هل حصلت على شيء منهما؟»

ـ: «لا أعتقد أن لهما علاقة بهذه القضية. فهما يفكران بطريقة سياسية مختلفة. وقد أدانا عمليات الأرهاب والأغتيال. ما من انسان يمكن أن يتحمل التعذيب الذي تعرضا له بدون أن يكون بريئاً. أنت تعرف أن ذلك مستحيل.»

ولكنه كان يعرف أن ذلك ليس مستحيلاً، فما لم يهزم الأنسان في داخله أولاً، لا يمكن لأي قوة أخرى أن تهزمه. وكان يعرف أن قوتهما تكمن في هذا الهوس المميت الذي يملأ رأسيهما، هوس الحرية. ولم يكن في مقدوره أن يطفىء هذا الهوس فيهما. وفكر «لقد خلقا ليرميا بالرصاص.» وكانت المدية تنغرز أكثر فأكثر في صدره. واستيقظ، إنه الكابوس، لم يكن كابوساً وقال لنفسه «إنهم

يقتلونني. لقد فشلت!» وكان وجهه يرشح عرقاً. ونهض مرة أخرى «لابد من أن أفعل شيئاً. خراء على الجميع!» ومسح العرق من جبينه «ماذا يمكن أن أفعل؟ كلهم يجلسون وراء مكاتبهم ويصدرون أوامرهم، طالبين مني النجوم!» وكان حلقه جافاً مثل خشبة وأعلن لنفسه «لا أستطيع، لا أستطيع.» لم يكن قد تذوق قطرة واحدة من العرق منذ ثلاثة ايام. وطلبه المدير العام. قال للسكرتير الذي إتصل به: «إنني قادم حالاً.» وأعاد سماعة التليفون دون أن يبرح مقعده «حسناً، ما الذي يريده هذه المرة؟ انه يجلس في مكانه ويحدق من وراء مكتبه في وجهي، ويظل يتكلم ويتكلم، بدون انقطاع، كما لو أنه فوهة بالوعة».

ولكن المدير العام لم يتكلم كثيراً هذه المرة عندما دخل عليه المعاون قاسم حسين وانما اكتفى بأقل الكلمات اختصاراً. كان وجهه متجهماً، مكفناً بتقلصات فجائية حادة. وقال بنبرة خالية من كل ود، عدائية ومباغتة:

ـ «لقد منحتك كل ما طلبته من صلاحيات، ولكنك فشلت في كل الأعمال التي توليت التحقيق فيها وتصرفت بطريقة طائشة، لا تليق برجل في مثل مركزك. هل تعرف أن الكليات مضربة الآن، بسبب تصرفك الأحمق في كلية التربية. لقد وضعتنا في موقف، لا نحسد عليه. وماذا جنينا من اعتقال الفتاة؟ لا شيء، لا شيء على الأطلاق. وها قد مرت ثلاثة ايام على حادث إلقاء القنبلة، ونحن لا نعرف حتى اسم الجثة التي نحتفظ بها. أليس كذلك؟»

كان المعاون قاسم حسين على وشك أن يسقط من الأنهاك والألم وشعر أنه يريد أن يتقيأ. ولكنه فتح فمه وقال مضطرباً:

ـ «لقد فعلت كل ما أقدر عليه. إنني لم أنم منذ ثلاثة أيام.»

قال المدير:

ـ: «تعرف انني لا أفرط برجالي بسهولة.»

واختنق المعـاون أكثر فأكثر ورفع يده ليمسح العرق عن عنقه. كان يقف صامتاً يحدق ببلاهة، واستمر المدير:

ـ: «لقد اتصل وزير الداخلية قبل قليل وطلب مني اعتقالك لتهاونك في عملك وتعريض أمن البلاد للخطر. ولكنني اقنعته بصعوبة أن يكتفي بسحب يدك من الوظيفة مؤقتاً فوافق. إنني آسف رغم كل شيء واعدك بالغاء كل ذلك عندما تتغير الظروف.»

واستجمع المعاون شجاعته حتى يقول:

ـ: «بعد كل هذه السنين في خدمتكم تقذفون بي إلى الشارع!»

كان يشعر برغبة في البكاء. وكان مجروحاً. قال المدير:

ـ: «ثمة شيء أخير. لا تعتقد أننا غافلون عن علاقتك مع هدى. انتبه ياقاسم فقد لا يكون مصيرك أفضل من مصير صديقك!»

حاول المعاون أن يحتج:

ـ: «أنت تعرف.. انها تساعدنا في عملنا. وها انكم تجعلون منها ذريعة ضدي.. انني..»

قال المدير بعصبية:

ـ: «إنتهت المقابلة. لست مستعداً لمناقشتك.»

حين غادر المعاون قاسم حسين غرفة المدير العام شعر أنه قد ترك وراءه حياته كلها، حياته التي كانت تنفلت من بين أصابعه مثل سمكة في نهر.

- ٢٠ -

كان الليل قد احتل المدينة منذ أكثر من ثلاث ساعات، وكان هو قد عبر شوارع عديدة سائراً على قدميه وجلس في اكثر من مقهى دون أن يغادره الحزن العميق الذي يكسو وجهه. . كان يفكر بدون انقطاع في كل شيء، دونما ترتيب أو تنظيم وكان ذلك يرهقه ويملأ رأسه بالصداع: أكف مقطوعة تحلق في الجو وأطفال يقذفون انفسهم من علو شاهق في الماء ولكنهم يسقطون على الرصيف. وكان يرى صرخات لا عد لها فينهض. صرخات لا فم لها، ويلتفت فلا يرى سوى الصمت وكان يحلم في صرخة حادة كالسكين تأتيه في الليل. وشعر أن الصمت يرهقه وقال في نفسه:

«ربما تعودت على هذا أيضاً» وكان لا يعرف ماذا يفعل بنفسه. كان يرى نفسه فائضاً مثل حجارة ملقاة في فلاة، مثل كرسي متقلقل، أو مثل رجل آخر يمشي في الشارع. ونظر إلى الليل. كان الحر يدبق قميصه الملتصق بجسمه وأطلق صرخة صامتة «لا أحد لي». وكان قد بلغ سينما السندباد «سأذهب إلى مديحة». واستوقفه شاب يقف عند منطقة الباص:

هل تسمح؟

نظر اليه المعاون بانتباه:

- «نعم.»

قال الشاب بذل:

- «إنني من بعقوبة، لقد أضعت نقودي ولابد لي من أن أعود اليوم.»

إبتسم قاسم:

- «هل أضعت نقودك؟»

-: «لست شحاذاً. ماذا أعمل؟»

قال قاسم باستهزاء:

- «لابد أنك نسيت. قلت لي الشيء ذاته قبل أسبوعين»

وارتبك الشاب فلم يجد ما يقوله. كان محرجاً. ودس المعاون في يده درهماً:

-: «لا بأس، لا بأس، تريد أن تسكر. أعرف ذلك.»

-: «شكراً.»

وابتعد الشاب متعثراً بخطواته وسط الحشد البشري الخارج إلى الليل. وفكر المعاون «لقد بدأوا يستجدون المارة ليسكروا وينسوا همومهم.»

وكان هو الآخر مهموماً أيضاً. وأشار إلى سيارة اجرة مسرعة، قال للسائق الذي كان ينظر اليه:

-: «إلى المسبح.»

فتح باب السيارة وتهالك على المقعد الخلفي. قال السائق الشاب:

-: «في أي مكان في المسبح؟»

قال قاسم بضجر:

-: «قرب الامباسي.»

قال السائق معلقاً:

-: «منطقة جميلة مليئة بالبنات.»

سأله قاسم مداعباً:

-: «هل تحب البنات؟»

قال السائق:

-: «طبعاً، هل يوجد رجل عاقل في العالم لا يحب البنات؟ ولكن بنات المسبح ليست لأمثالي من الفقراء. ماذا يفعلن مع سائق سيارة؟ لا أدري لماذا خلق الله الفقراء؟»

قال قاسم:

-: «وماذا في الفقر؟ إنه ليس عيباً!»

قال السائق بغضب:

-: «هذا ما يقوله الأغنياء.»

وسأل قاسم:

-: «هل أنت شيوعي؟»

ضحك السائق الشاب ساخراً:

-: «أستغفر الله. كل ما في الأمر هو أني أطق من القهر عندما أرى الاغنياء

يحصلون على كل شيء بسهولة وخاصة البنات الجميلات. ماذا أفعل؟ البنات يكرهن سواق التكسي وأنا أموت في البنات!»

ثم تساءل بمكر:

ـ «هل يحب الشيوعيون البنات أيضاً؟»

إبتسم قاسم:

ـ «إنهم يحبون كل شيء.»

قال السائق:

ـ «يعني مثلنا. والله زين!»

وفكر قاسم «ياله من ماكر، هذا السائق الشاب!» وسأله:

ـ «لماذا لا تكون شيوعياً؟»

هز السائق رأسه:

ـ «أهه... أخي. هل تريد أن تكسر رقبتي؟ ما علاقة الشيوعية بالبنات؟»

قال قاسم:

ـ «ألا تعرف؟»

أجاب السائق ببساطة:

ـ «لا.. والله!»

قال قاسم:

ـ «لن يكون في الشيوعية أغنياء وفقراء!»

سأل السائق:

ـ «وكيف يكون الناس اذن؟»

ضحك قاسم:

ـ «فقراء فقط!»

رد السائق هازلاً:

ـ «لن أحصل على البنات إذن.»

وكان قاسم حسين قد ضجر من اللعبة فقال للسائق:

ـ «هنا، قف، وصلت.»

كانت ثمة فتيات يتنزهن على طول الشارع، هادئات، صامتات، يتنفسن رائحة الليل، وعشاق متماسكو الأيدي يبتسمون لأنفسهم. وكان ثمة شبان، تنحدر شعور رؤوسهم حتى الكتف، يجتمعون تحت أعمدة الكهرباء ويطلقون قهقهاتهم

المستفزة. لم يكن قاسم حسين يميل إليهم «بلهاء، لا يفعلون شيئاً، ومع ذلك فان العالم قد خلق من أجلهم!» ودخل شارعاً فرعياً معتماً بعض الشيء، ثم خرج إلى شارع فرعي آخر. كانت شقة مديحة تقترب منه، ولكنه لم يكن يفكر في مديحة وانما في الليل العابق برائحة الأشجار.

●

مرة أخرى وجد قاسم نفسه في الشارع، ولم يكن بعد يشعر بالتعب رغم انه كان قد أمضى عدة ساعات من النهار يهيم من شارع إلى آخر دون غاية، ورغم انه احتسى سبعة كؤوس من العرق، ربما اكثر، انه لا يعرف بالضبط، وهو يلعب القمار في شقة مديحة. انهم مازالوا يواصلون اللعب هناك. ولكنه كان قد ضجر منهم «هؤلاء الاغوات الاكراد المنتفخون بالنقود.» كان قد ربح حوالي ثمانية دنانير. دس ثلاثة منها في يد مديحة وخرج. ولحقته حتى الباب:

ـ: «لماذا لم تعد هدى تزورني؟ تعالا.. غداً. سوف انتظركما!»

وقال قاسم:

ـ: «ربما، ربما.. ليس الآن.»

وابتسم للشارع «اذا بقيت هكذا مبعداً من عملي فليس ثمة شيء آخر يمكن أن أفعله.»

ومع الهواء البارد الذي كان يحس به على وجهه شعر بخدر لذيذ يسري في جسده وانتابته نوبة فرح مباغتة «لا يهم.. حتى إذا فصلت من عملي.. لا يهمني أي شيء.. لا يهمني العالم كله!» واتكأ على عمود كهرباء. كان الشارع خالياً الا من سيارات مسرعة تمرق بين الحين والآخر وكانت ثمة موسيقى تأتيه من بعيد. فكر قاسم حسين «إنهم يستمتعون بحياتهم في الامباسي.. الكلاب!»

وأمسك رأسه بين يديه «ولكن جليل هناك في السرداب!» وشعر بقلق شديد مشوب بعاطفة قديمة انبعثت فجأة في داخله «انني أحبه». واحتضن عمود الكهرباء وراح يبكي «لماذا ياجليل؟ لماذا؟»

كان يشعر أنه وحيد، مهجور حتى من نفسه. واستيقظ «ما هذا الهراء؟ انني اخرف. لابد انني سكران». ودفع قدميه إلى الامام. كانتا تتحركان كما لو أنهما منفصلتان عنه. وكان يشعر بهما وهما تضربان على الأسفلت «طب.. طب.. طب.» وقال لنفسه مندهشاً «انهما لا تشبهان رجلي!» وانفجر في ضحكة عصبية.. ومرقت سيارة من قربه فصرخ بصوت عال:

ـ: «حقير. . ابن القحبة!»

وكانت الشتيمة قد جعلته جاداً فسار مسرعاً باتجاه الموسيقى.

تجاهل الشرطيين اللذين كانا يجلسان عند مدخل الملهى واتجه إلى الصالة فبهرته الأضواء الساطعة. وكانت ثمة راقصات أجنبيات يؤدين رقصة ذات ايقاع سريع على المسرح في حين كانت الموائد تتناثر هنا وهناك، ممتلئة بقناني البيرة والويسكي، يتحلق حولها رجال يفتعلون المرح وآخرون سكارى في حين كانت النساء خليطاً من الاجنبيات والبرجوازيات العراقيات اللواتي بدأن يتعلمن الطريق إلى ملهى الأمباسي مع رجالهن. أما نساء الملهى فكن يجلسن في المقاعد الخلفية مع الزبائن، يحتسين الويسكي. جلس قريباً من ثلاثة شبان كانوا يحدقون بفزع في خشبة المسرح. وفكر «يالهم من بؤساء!»

وكانت على الطاولة ثلاث قنان للبيرة «لابد انهم طلاب».

تعمد أن يبتسم لهم عندما انتبهوا إلى وجوده. وجاء النادل. كانت الرقصة قد توقفت وسمع شيئاً يشبه التصفيق. كان النادل الأنيق يقف أمامه بكبرياء أثارت حنقه:

ـ: «نعم!»

رفع قاسم رأسه وقال بشيء من الأحتقار:

ـ: «ربع ويسكي، بسرعة!»

ـ: «نعم!»

قال النادل مبتعداً، بيد أن قاسم نادى عليه:

ـ: «دقيقة، تعال!»

وعاد النادل:

ـ: «هل تطلب شيئاً آخر؟»

قال قاسم:

ـ: «ثلاث قناني بيرة لأصدقائي هناك.»

وأشار بيده إلى طاولة الشبان الثلاثة.

قال النادل:

ـ: «نعم، حالاً.»

وكان الشبان الثلاثة قد انتبهوا إلى حركته فاعترضوا على هذا الكرم المجاني. ولكنه أصر بحزم:

ـ: «لا يمكن، لا يمكن.»

واقترح أحدهم:

ـ: «تفضل واجلس معنا اذن.»

قال قاسم:

ـ: «شكراً إنني مرتاح هنا. إشربوا واستمتعوا بالحياة. الدنيا لا تساوي شيئاً!»

ـ: «والله هذا صحيح.»

قال احد الشبان.

وعاد قاسم إلى نفسه. كان ثمة راقص وراقصة يؤديان حركات افعوية في بقعة الضوء الدائرية على المسرح، مصحوبة بموسيقى بطيئة تصبح سريعة عند نهاية كل حركة راقصة. وكانت عينا قاسم مركزتين على ساقي الراقصة «أتراها ترقص حقاً؟ أم تقدم عرضاً لجسدها اللدن؟»

وعاد النادل بالويسكي وقناني البيرة الثلاث. قال أحد الشبان ملتفتاً إلى قاسم:

ـ «شكراً جزيلاً!»

وقال قاسم:

ـ: «لا يهم، إشرب ياأخي إشرب. المهم أن نشرب!»

كان الشبـان الثلاثة قد انصرفوا عنه، وراحوا يتابعون الرقصة. وفكر قاسم «كلنا نفكر بطريقة واحدة. لا شيء يهمنا غير الجنس.»

وضغط بأصابعه على كأسه. ثم عبه دفعة واحدة، وشعر بشيء محرق تسلل إلى اعمـاقه، انتابته دوخة شديدة، كانت الموسيقى تطن في رأسه. رأى صورة غائمة لامرأة نصف عارية ترقص فوق المسرح الدائري المضيء وبهرته الالوان، فرفـع يده عالياً وقـذف بكـأسه من فوق الرؤوس، فسقطت على مقدمة المسرح المرمري وتحطمت محدثة ضجة غير متوقعة. وجفلت الراقصة فانسحبت خائفة، ثم لحق بها الراقص الذي كان يرتجف من الرعب. وتوقفت الموسيقى في حين راح قاسم يردد من مكانه:

ـ: «حقراء، هذا يكفي!»

ورأى قاسم بضعـة رجـال يقفـون فوق رأسه، ويحاولون جره إلى الخارج فنهض وصفع أحدهم على وجهه، وكاد يسقط لولا أنه استند على صدر الرجل

الـذي صفعـه ثم غام كل شيء أمـام ناظريه كان يريد أن يتقيأ وكان مرمياً على الأرض، وثمـة أقـدام تنهال فوق وجهه وعلى خاصرته، وفوق بطنه. وشعر أنهم يرفعونه ويجرونه بعيداً، وصفعه أحد الرجال في وجهه. وكان هو يدمدم:

ـ: «كلاب، أتركوني.»

وعند البوابة الخارجية ركله أحد الشرطيين الواقفين على قفاه فتدحرج إلى الشارع. وعندما فتح عينيه مرة أخرى شعر بأيديهم وهي تفتش في جيوبه. وسمع أحد الواقفين يقول:

ـ: «انه معاون أمن. ياللمصيبة!»

وكان هو يسقط أكثر فأكثر في الداور الذي يلفه، وفي رأسه تشتعل غابة من الضوء.

- ٢١ -

«هاأنذا منذ ثلاثة أيام اخبيء وجهي عن الناس، معتكفاً في هذا البيت الذي يخنق كل رعشة للحياة في داخلي. لا شيء يشبه الانحدار، إذ ما يكاد المرء يهوي قليلاً حتى يجد نفسه داخل الليل، حيث كل خطوة انحدار جديد.»

كان قاسم يفكر في عاره أمام نفسه «انني اخرب حياتي»

وهو يدخل مقهى صغيرة منزوية في الميدان «لا أريد أن اراهم بعد اليوم» وشعر برغبة شديدة في البكاء، بكاء ملك يساق إلى المشنقة. وقال لنفسه «سأكون رجلاً حتى النهاية» ولكن عاره كان أعمق من كل ذلك. «أي زمان هذا؟ أي زمان هذا ياقاسم؟ أن يضربك قوادو الملاهي ويتركوا آثارهم فوق وجهك!» ووضع صانع المقهى إستكان الشاي أمامه وانسحب.

كان ما يعذب قاسم هو كيف وجد نفسه نائماً على سريره في بيته في اليوم التالي. انه لا يذكر سوى صفعاتهم وركلاتهم وقال في نفسه، متأملاً بصورة مضببة في تفاصيل محنته «لا يمكن أن اكون قد عدت بنفسي. لابد أن أحداً منهم عرفني وأعادني إلى البيت!»

وآلمته هذه الفكرة كثيراً «سوف يتحدثون عني لمجرد التسلية» وكان الغضب والعار يمتزجان في داخله، ونهض «سوف أذهب اليهم.» ودس نفسه في سيارة أجرة:

- «إلى بارك السعدون.»

وفي الطريق فكر في جليل «هو الذي جعلني أمسّ باصابعي قاع الحضيض» وشعر برغبة شديدة في رؤيته «ربما أطلقوا سراحه أو ربما أطلقوا النار عليه.. من يدري؟» وصمم أن يسأل عنه. وربما طلب زيارته.. فهو مازال رغم كل شيء داخل المهنة.

وهبط إلى الشارع ثم انحرف يساراً باتجاه البوابة الخارجية «كم مرة سلكت هذا الطريق ياقاسم ولكن خطواتك وجلة هذه المرة» وتعمد أن يدخل بكبرياء مثلما

كان يفعل دائماً دون أن يلقي نظرة على الشرطي الحارس الذي يقف أمام الباب.
ولكن الشرطي نادى عليه:
ـ: «دقيقة سيدي!»
وتوقف قاسم. لحق به الشرطي:
ـ: «عفواً سيدي. طلبوا مني، عفواً سيدي أوامر، سيدي!»
فقال قاسم بامتهان:
ـ: «أوامر.. ماذا تريد؟»
كان قاسم يمثل دور الرجل القوي، قال الشرطي:
ـ: «ممنوع.. دخولك إلى الدائرة.»
قال قاسم بعصبية:
ـ: «عد إلى مكانك ولا تتدخل في هذه الأمور.»
قال الشرطي مصراً:
ـ: «عفواً سيدي، أوامر، لا أستطيع.»
فصرخ قاسم في وجهه:
ـ: «أوامر.. من؟ أوامر.. أي قواد؟»
ورفع صوته عالياً حتى بات يشبه الزعيق:
ـ: «حقراء، كلاب!»
واستمر الشرطي يقول:
ـ: «عفواً سيدي.. أوامر.»
كانت الضجة التي اثارها قاسم قد اجتذبت الرجال. شرطيون ومخبرون وكتاب وقفوا يتفرجون عليه وهو يطلق شتائمه. ثم جاء المعاون يوسف:
ـ: «إهدأ ياقاسم، إهدأ.»
وصرخ قاسم الذي كان ممتلئاً بالعار:
ـ: «أنتم تمنعونني من دخول الدائرة!»
قال المعاون يوسف:
ـ: «كفى فضائح ياقاسم. هذا أمر من السيد المدير العام.»
وشعر قاسم أن رجليه تخذلانه:
ـ: «ما الذي فعلته لاستحق ذلك؟»
قال المعاون يوسف:

ـ: «لابد أنك نسيت فضيحة الأمباسي. لقد أوصلتك سيارة الدائرة إلى البيت!»

وبصق قاسم على الأرض:

ـ: «إنكم بارعون في كتابة التقارير.. حقراء!»

وعاد إلى الشارع غير مبال بضجة المعاون يوسف:

ـ: «لماذا تشتم؟ لولا انك صديقي لأمرت باعتقالك الآن!»

- ٢٢ -

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كل شيء على ما هو عليه «انه العالم يكرر نفسه.» غادر مقهى البرازيلية رجلان بعد أن اطلقا ضحكة مشتركة إلتقطاها من النادل البدين. ودخل ثلاثة شبان من الباب الأخرى، يحملون الكتب وجلسوا قبالة الواجهة الزجاجية يحدقون في الشارع المكتظ. كان فنجان القهوة لايزال أمام قاسم، ولم تمتد يده اليه بعد. ونهض قاسم إلى المرحاض. كان ثمة شيء في رأسه وأحس انه وحيد ومنبوذ «لابد أن هدى تجلس الآن وراء مكتبها. إنها قريبة مني.»

وكانت به رغبة للذهاب اليها «لا تعرف أنهم طردوني. لن تعرف أبداً!» فكر المعاون قاسم حسين مع نفسه واستنتج، انها لو عرفت بما حل به لتخلت عنه هي الأخرى «انهم يتخلون عنك عندما لا تعود مفيداً!» وكان يعرف أنها عندما خانت جليل معه انما كانت تطلب سلطانه. «ترى ما الذي يمكن أن تجده الآن عندي؟» وأجاب بجزع «لا شيء. لقد انتهيت!»

وعاد إلى مكانه، فجرع قهوته الباردة دفعة واحدة، وراح يحدق في لا شيء. كان غائباً تماماً عن نفسه وعن الآخرين. رغم ان نظراته كانت تسقط على كل ما يحيط به في المقهى، وبين آونة وأخرى كان قاسم يرى الزبائن يدخلون أو يخرجون. كانوا يقولون أشياء غريبة أو يضحكون. وبدت حركاتهم غريبة في نظره، هؤلاء الناس الذين لا يمكن أن تتعرف على حقيقتهم الا عندما تجعلهم ينحنون أمام السوط الذي تهزه في الهواء منحدراً فوق رؤوسهم. وكان يتوجب على قاسم أن يبذل جهداً ليفتح فمه:

- «ياولد!»

ولكن النادل لم يلتفت اليه. كان منهمكاً في الحديث عن مرض صاحبة المقهى اللبنانية: «لقد أخذوا العجوز إلى المستشفى.»

كان قاسم قد ضجر من نفسه وفكر أن يدفن بؤسه في جريدة ما، وكان ثمة

شاب يجلس إلى يمينه قد نهض **فجاء النادل، وغير قاسم رأيه** «سوف أنهض أنا الآخر. هذه المقهى تشبه المقبرة بصمتها!» وكان يريد أن يبوح بأحزانه لأحد. ولكنه لم يكن يمتلك أحداً يمكن أن يجلس ازاءه ويحزن معه. في الماضي كان جليل يفعل ذلك معه أما الآن فليس ثمة سوى صمته الذي كان يقتله. وغادر المقهى إلى الشارع مصغياً إلى قرقعات حذائه الخفيفة. وسمع اغنية ريفية من **دكان يبيع المرطبات. كانت خطواته مرتخية. ولم يكن يعرف أين تأخذه قدماه.** ووجد نفسه يسير على الجسر باتجاه الجانب الآخر من بغداد «من الصعب أن يكون المرء بلا عمل. أين يمكن أن أذهب؟»

وضحك بسخرية وهو يطل برأسه إلى نهر دجلة الذي كان ثمة أطفال يلقون بانفسهم من أعمدة الجسر السفلى بين أمواجه وأجاب «إلى الجحيم، أو إلى النهر!»

وكان قد بلغ الساحة فانعطف نحو سوق الشواكة المزدحم: متاجر تبيع اقمشة رخيصة للقرويين، ومطاعم كباب، ودكاكين تبيع الفواكه. وفكر «انني اشم رائحة بغداد، بغداد الفقيرة!»

وكان ثمة أزقة تخرج منها نساء متشحات بالعباءات. وتوقف في منطقة باص. ثم صعد في أول سيارة دون أن يعرف اتجاهها. وعندما جاء الجابي تعمد أن يقول بصوت مرتفع:

ـ «هوية. أمن!»

فابتعد الجابي بصمت، دون أن يطالب برؤية هويته. وفكر «لقد أخفته.. المسكين!»

وجلست امرأة شابة ترتدي العباءة لصقه على المقعد فتعمد أن يضع فخذه على فخذها، شاعراً بهزة مسكرة في جسده. والتفت اليها مبتسماً ولكنها سحبت نفسها بشدة إلى طرف المقعد، فنهض وغادر الباص، متنفساً الصعداء ومتحرراً من رائحة الاجساد المعروقة المختنقة داخل الباص.. وعبر الشارع مرة أخرى باتجاه سوق السراي، مخترقاً الحشود البشرية المتداخلة التي تبيع أو تشتري كل شيء، من الملابس الجاهزة إلى العاهرات المؤدبات اللواتي يتصيدهن باعة الاقمشة. واستولى القلق على قلبه فقال لنفسه مطمئناً «انني ما أزال اعيش!»

وفرح لفكرة أن يعيش وباغته سيل من المشاعر، وكان يخشى أن يموت، هكذا، في لحظة وهو يعبر الشارع.

ووقف امام دكان يبدو كما لو أنه محفور في الحائط. كان آخرون يقفون إلى جواره ايضاً. وشرب قنينة كوكاكولا. وتذكر أن بعض الصحف تطالب هذه الايام بتحريم الكوكاكولا. انهم يمتلكون مصانع في اسرائيل. وفي تلك اللحظة سمع رجلاً يسأله:

ـ «رجاء كم الساعة؟»

ألقى نظرة على ساعته. كانت العقارب ميتة على الخامسة والدقيقة العشرين. وفتح فمه:

ـ «لا اعرف. ساعتي متوقفة.»

أجاب رجل آخر كان يقف متكئاً على الجدار من تلقاء نفسه:

ـ «انها الثانية عشرة والنصف.»

وفكر قاسم حسين بأسى «ما عساي أفعل بالزمن. لم أعد احتاجه.»

ومر في ذهنه ضوء خاطف. كانت ثمة ساعة تطوف في قعر البحر، وقريباً منها تسبح ثلاث سمكات، وفي اعلى الصورة الزرقاء كلمات تقول (نيفادا أفضل الساعات السويسرية). وكان هو يهم بمداعبة نفسه «كان ينبغي أن تكون هناك أنت أيضاً إلى جنب هذه الساعة العائمة. تتطلع إلى الأسماك بعينين زائغتين!»

وتوقف أمام كومة كتب مرصوفة على الأرض، منهمكاً في قراءة عناوينها. وكانت رائحة القيصرية العفنة تمنحه مشاعر لا يدركها تماماً، هي مزيج من روائح كان قد تعرف عليها في الماضي ورائحة هواء راكد ممتلىء بالدخان، ومع ذلك فانها كانت تبهره؛ هذا الممر الضيق الطويل ذو السقف المرتفع، حيث يحتشد ناس يختلفون في كل شيء، باعة كتب وقرطاسية، باعة شربت وباعة كبة يتحلق حول دكاكينهم الصغيرة الفقراء والشرطة ومثقفو المقاهي، وكتاب العرائض، والتقط كتاباً راح يتفحصه (كيف تكسب الاصدقاء؟) كان بلا أصدقاء تماماً ما خلا بعض العلاقات التي لا معنى لها. لم يكن قادراً على أن يمنح حبه لأحد، بيد أنه كان يمتلك شيئاً ما، ليس حباً على أية حال، يشده إلى هدى ومديحة. وقال لنفسه «لولا انني أحب جليل لما سحبت هدى معي إلى الحضيض. لقد أردت أن أكون مثله!»

وضحك في داخله «ياله من حب!»

وتمتم: «انني وغد.» ثم عاد يقول لنفسه «لماذا كل هذا اللوم؟ ليس ذنبي اذا كان قد ارتبط بامرأة مستعدة لخيانته مع أول رجل تصادفه!»

وابتعد حاملاً في يده الكتاب. كان يتفرج على المارة والحوانيت والنساء.

وخرج من جديد إلى الشارع، ثم استدار يميناً، وارتطم بحمال يجر وراءه عربة تكدست فوقها اكوام من ورق الصحف، وبلغ الحيدرخانة ثم انتهى إلى الجلوس في مقهى البرلمان، فكر أن يكتب مذكرة شديدة إلى المدير العام يحتج فيها على منعه من دخول الدائرة. ثم غير رأيه «ما جدوى ذلك.. انني أعرف هؤلاء الكلاب!» الا انه نهض، حيث يوجد التليفون عند مدخل المقهى ليتصل بهدى بعد عدة ايام من الأنقطاع.

●

قالت هدى:

- «إنني خجلة من نفسي. أشعر انني أخطأت. ما كان ينبغي أن افعل ذلك!»

قال قاسم باستنكار:

- «ماذا تعنين بذلك؟ انك لا تحبينه. اليس كذلك؟»

لم تجب هدى فسقط بينهما الصمت مرة أخرى.

كانا منذ اكثر من ساعة يتنزهان في الشارع. سارا أولاً على الضفة اليسرى من دجلة، بعد أن قطعا شارع المغرب. ورغم ان هدى كانت تشعر بالتعب فقد واصلت السير، أما قاسم فقد أحس بالضجر «ها هي هدى تعلن رفضها لي هي الأخرى» وفكر «لابد أنها عثرت على عشيق آخر لا مشاكل له» وبلغا رصيف المارة الضيق على الجسر الحديدي. قال قاسم برقة:

- «تعرفين انني بدأت أحبك.»

هزت هدى رأسها:

- «لا أستطيع. كل ذلك كان خطأ. لماذا اعتقلت ماجدة؟ إنني خائفة. لابد أنهم عرفوا أنني وراء اعتقال ماجدة. يالي من امرأة غبية!»

وقال قاسم، محاولاً تضييق الخناق عليها:

- «اذا كانت علاقتنا قد انكشفت... فلماذا كل هذا الحذر؟»

أجابت هدى مرتبكة:

- «لا أدري.. لقد انتهت حياتي مع جليل. لم يبق سوى الطلاق عندما تطلقون سراحه.»

وقال قاسم مخادعاً:

- «ربما لن يعرف شيئاً!»

هزت هدى رأسها:

ـ «سوف يعرف بالتأكيد. ولكن الأمر يخصني أنا بالذات قبل كل شيء.»

ثم اختنقت بالبكاء:

ـ «لن أقدر أن اعيش معه بعد. إنني لا أستحقه.»

وصاح بها قاسم:

ـ «ما هذا الذي تقولينه؟»

التفتت اليه هدى:

ـ «لقد خذلته، ما كان ينبغي لي أن افعل ذلك. فأنا مازلت زوجته.»

كانا قد بلغا نهاية الجسر فقفلا راجعين قاطعين الطريق نفسها. تساءلت هدى بأسى:

ـ «ألا تفكرون باطلاق سراحه؟»

قال قاسم:

ـ «ربما.. لا أدري!»

قالت هدى مستغربة:

ـ «ما الذي تعنيه؟ ألم يعد عندكم هناك؟»

ارتبك قاسم الذي لم يكن قد أخبرها بطرده من عمله:

ـ «انه مايزال هناك.. ولكن قضيته تعقدت بعض الشيء.»

وقالت هدى مستنكرة:

ـ «سخافات! سخافات!»

ثم ران الصمت عليهما فسارا يحدقان إلى الامام متنفسين رائحة النهر، وأشعل قاسم سيجارة. وانتبه إلى سيارة فيات تبطيء وهي تعبرهما، وكان في داخلها ثلاثة شبان يحدقون فيهما، وفكر «لابد أنهم يبحثون عن عاهرة!»

وكانا قد بلغا نهاية الجسر فانحدرا نحو ضفة النهر، سائرين باتجاه الاعظمية. كانت هدى صامتة، قال قاسم «لا ينبغي أن تكوني حزينة هكذا!»

لم تقل هدى شيئاً. واقترح قاسم:

ـ «هل نذهب إلى بيت مديحة؟»

قالت هدى:

ـ «كلا!»

ولفهما الصمت مرة أخرى فلم يعودا يسمعان سوى وقع اقدامهما على

اسفلت الشـارع. وعلى الشاطيء رأى قاسم بضعة أطفال يخوضون في الرمل. وكانت ثمة سيارات قليلة تمر بهما بين فينة وأخرى. كان قاسم قد ضجر من اللعبة:

- «هل تلقيت تهديداً جديداً؟»

قالت هدى:

- «أبداً!»

كانـا يسيران صامتين، ومـرت سيارة الفيات الخضـراء التي كان قاسم قد شاهـدها على الجسر. كانت تسير متباطئة في البداية ولكن ما كادت عينا قاسم تلتقيان بعيني سائقها حتى أسرعت مبتعدة. وبصق قاسم شاتماً:

- «أولاد الكلب! لا عمل لهم سوى مضايقة الناس!»

اما هدى فكانت قد أشاحت برأسها باتجاه النهر، محدقة في الطيور المحلقة فوق الماء والتفت قاسم إلى هدى:

- «إنك تهولين الأمر.»

قالت هدى:

- «آسفة. كنت أفكر في الطيور.»

وشعر قاسم أن مزاجها بدأ يروق فحاول إنقاذ الموقف:

- «هل تعرفين...»

وجمدت الكلمات في فمه، فقد رأى سيارة الفيات الخضراء تقترب منهما، وشعـر بغيظ محرق «الكلاب مرة أخرى!» وقرر أن يفعل شيئاً هذه المرة، كانت السيارة تسير ببطء شديد وهي تقترب منهما، فرفع يده صارخاً:

- «قفوا...!»

لم يكن ثمة بد من الاشتباك مهما كان الثمن باهظاً، فهو لم يعتد أبداً أن يعـامل بمثل هذه الوقاحة، ولكن السيارة لم تتوقف وانما ابطأت أكثر فأكثر وهي توشك أن تبلغهما، فتقدم نحوها بغضب وعصبية:

- «قفوا ما الذي تريدونه؟»

تسمرت هدى في مكانها قبل أن تستجمع شجاعتها وتنادي عليه:

- «ما هذا الذي تفعله؟ هل تريد أن تفضحنا؟»

كان المعاون قاسم حسين قد أصبح وسط الشارع، في مواجهة السيارة التي كانت لاتزال تسير ببطء شديد، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- «سوف أريكم من أنا، أيها الكلاب!»

كان منفعلاً جداً ومع ذلك خيل اليه أنه يعرف سائق السيارة، فقد رأى وجهه في مكان ما، في أحد الفروع التابعة للأسرة التي كان مديره العام يتحدث عنها بخيلاء، ولكنه لم يكن متأكداً وسط الضباب الذي كان يملأ رأسه. رفع ذراعيه عالياً، قاطعاً الطريق على السيارة التي كانت تتجه نحوه ببطء شديد. ولكنها بدل أن تتوقف لتتفادى الأرتطام بالكتلة البشرية التي كانت تواجهها، إنطلقت فجأة بسرعة خاطفة، باغتت المعاون قاسم حسين الذي لم يشعر بحقيقة الخطر الذي يواجهه الا وهو يرتفع في الفراغ وفي رأسه ترعد البروق. وأطلقت هدى عبد القادر صرخة هستيرية وهي ترى قاسم يسقط على حافة الرصيف، ملطخاً بالدم والوحل، وقد انفلتت إحدى فردتي حذائه وسقطت على الرصيف. ثم وقفت مشدوهة، لا تعرف ماذا تفعل، بل أنها لم تجرؤ حتى على الصراخ مرة أخرى، محدقة، كما لو أنها في غيبوبة، في المعاون قاسم حسين الذي كان ينزف مرمياً، نصفه فوق اسفلت الشارع ونصفه الآخر فوق الرصيف. حاول قاسم أن يرفع نفسه ولكن يديه غارتا في الماء الآسن المتجمع في الشارع وهوى مرة أخرى على وجهه الملطخ بالدم والوحل. وفي لحظة، لحظة سريعة جداً رأى جليل محمود يلوح له من فوق غيمة بعيدة وأغنية قديمة تهمس في ليل:

«أواه، أيها الطحان، أيها الطحان

أنت صاحب الخان وأنا المسافر!»

جاهد أن يجر جسده الذي كان ينتفض الا أنه شعر أنه متعب، متعب جداً، فاستسلم للنعاس، النعاس اللذيذ.

منشورات بابل

١ ـ المرتجى والمؤجل / رواية	غائب طعمة فرمان
٢ ـ حدث ذات وطن	عواد ناصر
٣ ـ السدرة تزهر مرتين / رواية	فائز الزبيدي
٤ ـ الجوانب العسكرية لمعاهدة بورتسموث	فران هيزلتون
٥ ـ سر التفاحة	مهدي محمد علي
٦ ـ قصاصات	يانيس ريتوس ترجمة : عبد الكريم كاصد
٧ ـ قصائد الكوارث والأمل	ترجمة : مصطفى عبود
٨ ـ الاعمال الكاملة / النخلة والجيران	غائب طعمة فرمان
٩ ـ أوراق جبلية	زهير الجزائري

من منشوراتنا القادمة

● الهبوط الى الابدية بحبل / قصص	فاضل العزاوي
● رباعية أبو كاطع	شمران الياسري
● الاعمال الكاملة / خمسة اصوات	غائب طعمة فرمان